

بمحنة التأليف والترجمة والنشر

أَبْنُو الْعَبَّاسِ الْأَمْعَرِيُّ

نسبه وأخباره .

شعره .

معتقده .

تأليف

المرحوم أحمد تيمور باشا

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م

بجته التأليف والترجمة والنشر

أَبُو الْعَبَّاسِ الْمَعْرِي

نسبه وأخباره .

شعره .

معتقده .

تأليف

المرحوم أحمد تيمور باشا

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م

بيان

كان الظن أن المؤلف ، طيب الله ثراه ، قد استوفى هذا الكتاب تأليفاً وإعداداً ؛ وأنه قد فرغ من جمع المواد ، وتمييز الأقسام ، وتبيين الفصول ، ومراجعة العبارة . ولكن وردت في أضعاف الكتاب إشارات وعلائم تصرف هذا الظن .

من ذلك أنه جعل لقسم من الكتاب عنواناً هو : (شعره وثره) وما يكون للمؤلف أن يهمل جانب الثمر من آثار المترجم له ؛ إلا أن فصول هذا القسم خالية كلها من حديث الثركله . فالحتم أنه عقد العزم على أن يكسّر بعض فصول عليه .

ومن ذلك أنه بنى فصلاً (المكرر من معانيه) وقد وُجد مكتوباً في ورق قصير من غير جنس الورق الذي كتب فيه سائر الكتاب ، وفي إحدى صفحاته جملة مستقلة يُفهم موضوعها أن المؤلف صاغها ليهدبها لهذا الفصل ؛ وهذا المظهر يشهد بأن هذا الورق مسودة أقيمت للزيادة عليها ، والتغيير فيها . فإذا لوحظ إلى هذا أن الفصل قليل ضئيل مع سعة الموضوع وتشعبه ، وأن الأبيات المستشهد بها

حُلِّمَها من غير شعر اللزوم ؛ قام اليقين بأن المؤلف كان مقدراً إكمال موضوعه فيما بعد ، وتبييضه في ورق ممائل لورق بقية الفصول ؛ جرياً على سنته في إخراج هذا الكتاب .

ومن ذلك أنه عند الحديث في (معتقده) ساق حكاية أبيات من قصيدة ، ثم قال : « وسأوردها بتمامها عند الكلام على منظومه ، فإنها من شعره المفقود » ، ولم ترد هذه الأبيات الموعود بها في ثنايا الكتاب . فإن استُخبر مُفاد هذه الجملة ، أعطى أنه كان ينبغي إنشاء فصل لهذا النوع ، يجعله في جملة فصول القسم الذي عنوانه : (شعره ونثره) . ومن ذلك أنه قال في خاتمة الفصول الموجودة من هذا الكتاب : « . . . بدليل ما ذكرناه من الكلام وما سنذكره » ، وواضح أن هذه كلمة من لم يقض مأربه من القول بعد .

يضاف إلى هذه جميعاً أن حواشي الأوراق حافلة بألوان من الزيادة والإبدال والإصلاح ، مما يدع الرأي مطمئناً إلى أن النسخة كانت في حياة المؤلف لا تزال بين يديه : يراجع فيها تسريح الناظر ، وإجراء الخاطر ، وإعمال القلم .

على أنه ربما يكون قد أُجِّلَ معاودة الكتاب إلى فرصة لم تسنح ، وأولاه مهلة اتصلت بانتقاله إلى جوار ربه ؛ فإنه لما عرّف بكتاب

الفصول والغايات ، في فصل (مؤلفاته) ؛ اقتصر على بيان طريقته وموضوعه ، فما أشار المؤلف إلى حصوله على مخطوطة الجزء الأول من هذا الكتاب النادر ؛ ولهذه الإشارة شأنها ، إذ هي إعلام بمكان تحفة كانت مفقودة ، ووجدان ضالة ظلت منشودة . ومن سبيل المؤلف في كتابه هذا أنه ما تعرض مناسبة كتاب غير مشهور ، أو أثر عزيز الوجود ؛ إلا هدى إلى مخبئه ، وعرف بنسخته ، ولم يفته أن يذكر حصوله عليه إن كان . وما دام هذا صنيعه في الكتب العارضة ، فمثل هذا الصنيع في كتب المترجم له أولى وأحق . وإذا فلا بد أن يكون المؤلف قد وادع مخطوطة الكتاب قبل أن يحصل على نسخة الفصول والغايات ، ثم لم يماوده حتى لبي نداء ربه خالد الذكر ، حميد الأثر .

مشمولات الكتاب

نسبه وأخباره

٣	فصل في نسبه
٧	» » بيته
١٠	» » مولده ووفاته وحليته
١٦	» » نشأته وطلبه العلم ورحلته
١٩	» » تلاميذه
٢٢	» » مبلغ علمه وذكائه
٦٠	» » مؤلفاته
٧٨	» » تروته وزهده
٨٤	» » بقية أخباره

شعره

٩٩	فصل في المكرر في معانيه
١٠٣	» » سرقاته
١١٧	» » مأخذ الشعراء من شعره
١٢١	» » مقارنة بعض معانيه بمعاني غيره

معتقده

١٢٥	فصل في اختلافهم فيه
١٣٨	» » معتقده في الله
١٥٦	» » معتقده في النبوات والرسول

نبه وأخباره

فصل في نسبه .

» » بيته .

» » مولده ووفاته وحليته .

» » نشأته وطلبه العلم ورحلته .

» » تلاميذه .

» » مبالغ علمه وذكائه .

» » مؤلفاته .

» » ثروته وزهده .

» » بقية أخباره .

فصل في نسبه

هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحرث بن ربيعة بن أنور بن أسحم بن أرقم بن الثَّعْمَان بن عدي بن غطفان بن عمرو بن بريح بن خزيمة بن تميم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة الثَّنُوخِيّ المَعَرِّيّ. وهكذا ساق نسبه ابن خلكان ، وهو أوضح ما وجدناه بالمعارضة على ما في كتب الأنساب ؛ فإن فيما ذكره ياقوت في «إرشاد الأريب» إسقاطاً لبعض الأسماء واضطراباً في ترتيب بعضها ، فاعتمدنا على رواية ابن خلكان بعد تصحيح ما حُرِّف منها ، فإن خزيمة بن تميم الله جاء في النسخة المطبوعة ببولاق : جذيمة بالجيم والذال المعجمة ، وما نُصِّرَ عليه في كتب اللغة والأنساب خزيمة بالخاء والزاي مُصَغَّرًا . وتيم الله بن أسد هكذا في جميع ما وقفنا عليه من الكتب ، وجاء به أبو العلاء في سقط الزند تيم اللات ، في قوله :

سألته قبل يوم السير مَبْعَثُهُ إليك ديوان تيم اللات ما لَيْتَا

وقد يكون هذا تحريفاً في النسخة ، إلا أن مَنْ خَبَرَ شعر أبي العلاء ، ومذهبه في تكلفه الصناعة والتجنيس ، رجح أنه ما أتى بقوله ما لَيْتَ ، أي ما نُقِصَ ، بعد قوله اللات ، إلا إرادة للتجنيس . والله أعلم . وقد يذهب الظن إلى أن تيم اللات هذا ربما كان غير تيم الله المذكور مقدماً ، وهو مردود بما ذكره الشارح في سياق نسبه عند شرح البيت . على أن فيما ذكره ابن خلكان ما لا يسكت عنه أيضاً ، وما نقلناه عنه هو ما وجدناه في النسخة المطبوعة ببولاق ، والنسخة المطبوعة بباريس . ونقل ابن الوردي في تاريخه عبارة ابن خلكان ، فأسقط

أحمد بن سليمان من سلسلة النسب ، ويوافق ما في « الكوكب الثاقب » لعبد القادر ابن عبد الرحمن السكّوي ، إلا أنه أسقط محمد بن سليمان بدل أحمد . وعلى كل حال فالظاهر أن ما ورد في ابن خلكان فيه زيادة اسمين ربما سبق بهما قلم الناسخ . وجده الأعلى قُضَاعَة بن مالك أبو حَيٍّ من اليمن ينتهي نسبه إلى قَحْطَان ، هذا هو المشهور . وزعم نَسَاب مُضَر أنه قضاة بن مَعَد بن عدنان ، وأن مالكا زوج أمّه ، والنسب إلى زوج الأم عادة معروفة عند العرب ، ولعلماء الأنساب في ذلك اختلاف كثير ، ولهذا قال محمد بن سلام البصري النَّسَابَة لما سئل : أنزَار أكثر أم اليَمَن ؟ فقال : إن تعددت قضاة فنزار أكثر ، وإن تيمنت فاليمَن . وعلى القول الأول قول بعضهم :

قُضَاعَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ حَمِيرٍ النَّسَبُ الْمَعْرُوفُ غَيْرُ الْمُنْكَرِ
وعلى القول الثاني قول الكُمَيْتِ الْأَسَدِيِّ يخاطب قضاة :

فَأِنَّكَ وَالتَّحَوُّلَ عَنْ مَعَدٍ كَحَالِيَةٍ تَزَيْنُ بِالْمَطُولِ
تُعَايِظُ بِالتَّعَطُّلِ جَارَتِهَا وَبِالْأَحْجَاءِ تَبْدَأُ وَالْحَلِيلِ
فَمَهْلًا يَا قُضَاعَةُ لَا تَكُونِ كَقَدَحِ خَرَّ بَيْنَ يَدَيِ مُجِيلِ
وَمَا مِنْ تَهْتِفِينَ بِهِ لِنَصْرِ بِأَقْرَبِ جَابَةِ لَكَ مِنْ هَدِيلِ

وسمى قُضَاعَة لانقضاءه عن قومه مع أمه ، أي انقطاعه عنهم ؛ أو من قضيته ، أي قهره . وقيل بل هو اسم منقول ، وأصل القُضَاعَة الفَهْد .

والتَّنُوخِيَّ نسبة إلى تنوخ كصبور ، وتشديد النون خطأ ؛ وهم قبيلة من اليمن من قضاة ، سُمُوا بذلك لأنهم اجتمعوا وتحالفوا ، وتنوخوا بمكان في الشام أي أقاموا فيه ، ومن الناس من يطلق تنوخ على الضَّجَاعَةِ ودَوَسَ الذين تنوخوا بالبحرين ، والاختلاف في ذلك كثير أيضاً . ونقل عن أبي عبيد أنهم تنوخوا

على مالك بن زهير بن عمرو بن فهم بن تيم الله بن أسد ، وعلى مالك بن فهم
عم مالك بن زهير . وذكر الحمداني أن المعرة من بلاد الشام هي صليبة تنوخ ،
بمعنى أن بها جمعهم المستكثر . وفي « إرشاد الأريب » لياقوت أن تيم الله بن أسد
هو مجتمع تنوخ من أهل معرة النعمان . وقال أبو يعقوب النخوي في شرح « سقط
الزند » أن تيم الله هو مجتمع تنوخ في النسب ، ولم يخص أهل المعرة . ويوافقه
ما ذكره ياقوت في معجم البلدان ، إلا أن أبا يعقوب سماه تيم اللات كما قدمنا .
وكان شعار تنوخ في حروبهم : (واصيل ، واصل) ، وإليه أشار أبو العلاء في
لزومياته بقوله :

فِرٌّ من هذه البرية في الأر ض فما غير شرّها لك حاصل
فشعارى قاطع وكان شعاراً لتنوخ في سالف الدهر واصل

والشعار : العلامة في الحرب ، وفي الحديث أن شعار أصحاب رسول الله صلى
الله عليه وسلم كان في الغزو : (يَا مَنْصُورُ أُمِّتْ أُمِّتْ) وهو تفاؤل بالنصر بعد
الإماتة . واستشعر القوم إذا تداعوا بالشعار في الحرب .

والمعري نسبة إلى معرة النعمان ، وهي بلدة بالشام من أعمال حمص بين
حلب وحماة ، وليست منسوبة للنعمان بن المنذر كما توهمه بعضهم ، بل نسبت فيما
ذكروا للنعمان بن بشير الأنصاري ، لأن ولدًا له مات وهو مجتاز بها ، فدفنه فيها
وأقام أياماً حزيناً ، فنسبت إليه لذلك . قال ياقوت في معجم البلدان : وهذا في
رأى سبب ضعيف لا تسمى بمثله مدينة ، والذي أظنه أنها مسماة بالنعمان الملقب
بالساطع . قلت : وهو النعمان بن عدي ، أحد أجداد المعري المذكورين في نسبه .
والذي ذكره ياقوت مقبول ، فإن تسمية بلدة باسم أحد قاطنيها المشهورين فيها
أقرب من تسميتها بأحد المجتازين بها . وذهب الشريشي في شرح المقامات إلى

أنها أضيفت لجبل مطل عليها اسمه النعمان ، ولم يذكر ياقوت هذا الجبل .

ومن شعر أبي العلاء فيمن عيَّره باسم بلده :

يعيرنا لفظ المعزة أنها من العرّ قوم في العلاء غرباء
وهل لحق الثريب سكان يثرب من الناس ، لا ، بل في الرجال غباء
وذو نجب إن كان ما قيل صادقاً فما فيه إلا معشر نجباء
أى إن كان اسم البلد له تأثير على ساكنيه ، على ما زعم هؤلاء الزاعمون ،
فيلزم منه أن الثريب لاحق لسكان يثرب ، وهى مدينة الرسول عليه الصلاة
والسلام . ويلزم منه أيضاً أن يكون سكان ذى نجب كلهم نجباء ، مع أن
فيهم النجيب وغير النجيب كسائر سكان البلاد .

ومن شعره فى اسمه :

وأحمد سمانى كبيرى وقلماً فعلت سوى ما أستحق به الذمما
وقال أيضاً :

رؤيدك لو كشفت ما أنا مضمير من الأمر ما سميته أبداً باسمى
أظهر جسمى شاتياً ومقيظاً وقلبي أولى بالطهارة من جسمى
وقال فى كنيته :

عرفتك جيداً يا أمّ دفر وما إن زلت ظلمة فزولى
دعيت أبا العلاء وذاك مئى ولكن الصحيح أبو النزول

يقول ذلك جرياً على عادته فى الخول والتواضع .

وقد خلط بعض العصريين بين أبى العلاء المعرى ، وأبى العلاء صاعد
اللغوى ، لاتفاقهما فى السكنية واشتهار كليهما باللغة ، فنسب المعرى كتاباً اسمه
الفصوص فى قصة ساقها ، وإنما هو لصاعد ، وسيأتى تفصيل ذلك فى فصل مؤلفاته .

فصل فى مقارنة بعض معانيه بمعانى غيره

قال أبو العلاء :

جهلٌ بمثلِكَ أن يزور بلادنا يختال بين أساور وخلائل
أو ما رأيت الليل يلقى شهبه حتى يجاوزها بحلة عاطل

وقال الوزير ابن زيدون :

قعيدك أنى زرت نورك واضح وعطرك نمام وحليكَ مرجف
هبيكَ اعتررت^(١) الحى واشيك هاجم وفرعك غريب وليلك أغضف^(٢)
فكيف اعتسفت الهول خطوك مدمج وردفك رجراج وخصرك مُحْطَفٌ^(٣)

أقول : مدار المعنى فى الشعرين على التعجب من مخاطرة هذه المعشوقة فى زيارة صاحبها . فتناوله كلا الشاعرين ، وتلاعب به ، فأبرزه فى الصورة التى شاء له اقتداره إبرازه فيها ؛ وقد أجاد كل منهما فيما حاوله ، وتساويا فى الإحسان ، فلا أرى للترجيح مدخلا بينهما . ويلوح لى أن كليهما اعتمد فى توليد معناه على قول أبى الطيب :

قلق المليحة وهى مسك هتكها ومسيرها بالليل وهى ذُكاء
ولا يظهر ما قلته إلا بزيادة التدقيق ، وإطالة التأمل .

وقال أبو العلاء :

آلَى أميرك لا يسرى الخيال لنا إذا هجمنا فقد أسرى وما علماً
وكم تَمَنَّتْ رجال فيك مُغْضَبَةٌ أن يبصروه فلم يظهر لهم سَقَمًا

(١) المتر : الزائر .

(٢) الأغضف : المظلم .

(٣) المحطف : المنطوى .

« أبوه عبد الله بن سليمان » ولى القضاء بعد أخيه محمد بن سليمان ، وتوفي
لحمص سنة ٣٧٧ هـ . ومن شعره في رثاء والده :

إن كان أصبح من أهواه مُطَرَّحاً ييباب حمص فما حزني بمُطَرَّحِ
لو بان أيسر ما أخفيه من جزع لمات أكثر أعدائي من الفرح
ورثي أبو العلاء والده بقصيدة نونية أولها :

نقمت الرضا حتى على ضاحك المزن فما جادني إلا عبوس من الدجن
وسنورد مختارها عند الكلام على منظومه .

« أخوه أبو المجد محمد بن عبد الله بن سليمان » كان أسنَّ من أبي العلاء ،
ومن شعره في الزهد :

كرم المهيم من منتهى أملى لا نيتي أجر ولا عملى
يا مُفضِلاً جلت فواضله عن بغيتي حتى انتهى أجلى
كم قد أفضت على من نعم كم قد سترت على من زلل
إن لم يكن لي ما ألوذ به يوم الحساب فإن عفوك لى

« أخوه أبو الهيثم عبد الواحد بن عبد الله بن سليمان » كان شاعراً كأبيه
وأخويه أبي المجد وأبي العلاء ، ومن شعره :

قالوا نراه سلاً لأب جفونه ضللت عشية بيننا بدموعها
ومن العجائب أن تفيض مدامع نار الغرام تشب في ينبوعها
وله في الشمعة :

وذات لون كلوني في تغيره وأدمع كدموعي في تحدرها
سهرت ليلي وباتت لى مسهرة كأن ناظرها في قلب مسهرها

قلت : ومهما قيل في الشمعة ، فليس لقصيدة القاضي ناصح الدين الأرجاني ضريب في هذا الباب ، فقد بدَّ بها من تقدّمه وأعيان بعده ، إذ يقول :

نَمَّتْ بِأَسْرَارِ لَيْلٍ كَادَ يُخْفِيهَا	وَأُطْلَعَتْ قُلُوبُهَا لِلنَّاسِ مِنْ فِيهَا
سَفِيهَةٌ لَمْ يَزَلْ طَوَّلِ اللِّسَانُ لَهَا	فِي الْحَيِّ يَجْنِي عَلَيْهَا ضَرْبَ هَادِيهَا
غَرِيقَةٌ فِي دَمُوعٍ وَهِيَ تَحْرِقُهَا	أَنْفَاسُهَا بِدَوَامٍ مِنْ تَلْظِيهَا
تَنْفَسَتْ نَفْسَ الْمَهْجُورَةِ إِذْ كَرَّتْ	عَهْدَ الْخَلِيطِ فَبَاتَ الْوَجْدُ يُبْسِكِيهَا
يُخَشَى عَلَيْهَا الرَّدَى مَهْمَا أَلَمَّ بِهَا	نَسِيمُ رِيحٍ إِذَا وَافَى يُحْيِيهَا
كَأَنَّهَا غُرَّةٌ قَدْ سَالَ شَارِخُهَا	فِي وَجْهِهِ دَهْمَاءُ يَزْهَاهَا تَجْلِيهَا
أَوْ ضَرَّةٌ خَلَقَتْ لِلشَّمْسِ حَاسِدَةٌ	فَكَلِمَا حُجِبَتْ قَامَتْ تَحَاكِهَا
لَهَا غَرَائِبُ تَبْدُو مِنْ مُحَاسِنِهَا	إِذَا تَفَكَّرْتَ يَوْمًا فِي مَعَانِيهَا
فَالْوَجْنَةُ الْوَرْدُ إِلَّا فِي تَنَاوُلِهَا	وَالْقَابِظَةُ الْعَصْرُ إِلَّا فِي تَثْنِيهَا
صُفْرُهُ غَلَاثِلُهَا حُمْرُهُ عِمَامُهَا	سُودَ ذَوَائِبِهَا بَيَاضُ لَيَالِيهَا
تَحْيِي اللَّيَالِي نَوْرًا وَهِيَ تَقْتُلُهَا	بُئْسَ الْجَزَاءُ لَعَمْرُ اللَّهِ تَجْزِيهَا

ولولا خوف الإطالة لذكرتها بتمامها لغرابتها .

وأتى بعد أبي العلاء جماغة ذكر منهم ياقوت ثمانية أسماء ، وأضرب عن ذكر غيرهم اختصاراً ، وغالبهم تولوا القضاء بالمعرة ، وكفرطاب ، وحماة . ومنهم من تولى ديوان الإنشاء .

وإنما تركت ذكرهم لما قدمت من تحريف أسمائهم في النسخة .

فصل في مولده ووفاته وحليته

ولد يوم الجمعة عند مغيب الشمس، لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ٣٦٣ . وعي بالجدري أول سنة ٣٦٧ . غشي يمينه عينيه بياض ، وذهبت النسة ، حمأة . وكان يقول : لا أعرف من الألوان إلا الأحمر ، لأنهم ألبسوني حين جدت ثوباً معصفاً ؛ لا أعقل غير ذلك . وقال في إحدى رسائله إلى داعي الدعاة : (وقد علم الله أن سمعي ثقيل ، وبصري عن الإبصار كليل ، قضى عليّ وأنا ابن أربع ، لا أفرق بين البازل^(١) والرُّبْع^(٢)) فلا وجه إذا لمن زعم أنه ولد أكمه .

وحكى السلفي عن أبي محمد الإيادي أنه دخل مع عمه علي أبي العلاء يزوره ، فرآه قاعداً على سجادة لبْدٍ وهو شيخ . قال : فدعاني ومسح على رأسي ، وكنت صدياً ، وكأني أنظر إليه الساعة وإلى عينيه إحداها بارزة والأخرى غائرة جداً ، وهو مجدر الوجه ، نحيف الجسم .

ونقل الثعالبي عن المصيصي الشاعر ، قال : رأيت بمَعْرَةِ النعمان عجيباً من العجب ، رأيت أعمى شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد ، ويدخل في كل فن من الجد والهزل ، يكنى أبا العلاء ، وسمعته يقول : أنا أحمد الله على العمى ، كما يحمد غيره على البصر . انتهى .

وقال الشيخ عبد الغني النابلسي في رحلته الكبرى المسماة بالحقيقة والحجاز ،

(١) البازل من الجمال الذي بلغ سبع سنين ، وليس بعده سن تسمى .
(٢) والربع كصرد الفصيل ينتج في الربيع وهو أول النتاج ، فإذا نتج في آخر النتاج فهو هبع ، ومراد أبي العلاء : لا أفرق بين الكبير والصغير .

في رحلة الشام ومصر والحجاز ، عند كلامه على القدس وما فيها : « ودخلنا إلى المدرسة المسماة بالفخرية ، وهي في غاية من الحسن والإتقان ، وكال البهاء وجمال البنيان ، وفيها جملة من الكتب ، ورأينا فيها ديوان أبي العلاء المعري وشرحه ، ورأينا هناك مكتوباً له هذين البيتين ، وهما قوله :

قالوا العمى منظر قبيح قلت بفقدى لكم يهون
والله ما في الأنام شيء تأسى على فقداه العيون
ويناسبه قوله أيضاً :

أبا العلاء يا ابن سليمان إن العمى أولاك إحسانا
لو أبصرت عيناك هذا الوري ما أبصرت عيناك إنسانا »

انتهى كلام الشيخ . والبيتان الأولان اختلفوا في قائلهما ، فنسبهما الصفدي في شرح لامية العجم ج ٢ ص ٢٨٤ لأبي العلاء كما ذكر الشيخ ، ولكن روايته (ما في الوجود) بدل (ما في الأنام) .

ونسبهما الشريشي في شرح المقامات لبشار بن برد ، وروايته (ما في البلاد) ، ونسبهما الطواط (في الفرر والعرر ص ١٦١) لأبي العيناء ، وروايته (والله ما في الأنام حر) والله أعلم .

والبيتان الآخران لم أجدهما في شعر أبي العلاء ، ولعلهما من شعره المفقود . فإن قيل : كيف كان يحمد الله على العمى ، وهو القائل في عكسه يتمنى الإبصار :

قلت الليالي ساحتني بناظر يراك ومن لي بالضحي في الأصائل
فلو أن عيني ممتعتها بنظرة إليك الأمانى ما حلت بغائل

قلنا : ليس هذا من التناقض في شيء ، ولكل مقام مقال ؛ لأنه أبان في الأول عن مذهبه ورأيه في الوجود ، وجرى في الثاني على طريقة الشعراء في مدائحهم ؛

إذ كان المقام يقتضيه . ومن هذا تعلم فرق ما بين شعريه في سقط الزند والازوميات ،
لاختلاف المقامين وتباين الوجهتين . وإن صحت نسبة البيتين السابقين لأبي العيناء
كما ذكر الوطواط ، فقد جرى على مثل هذا أيضاً في قوله للمتوكل وقد سأله عن
أصعب ما مر عليه في فقد بصره ، فقال له : فقدى لرؤيتك يا أمير المؤمنين .

ومن قول أبي العلاء في عماء ، وهو مما رواه له الصفيدي :

سواد العين زار سواد قلبي ليتفقاً على فهم الأمور
يشير بذلك إلى أن العميان عوّضوا عن البصر الذكاء وسرعة الحفظ ، وقريب
منه ما ينسب لسيدنا عبد الله بن عباس ، وكان أصيب في بصره في آخر عمره :
إن يأخذ الله من عيني نورها ففي فؤادي وقلبي منهما نور
قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخل وفي فمي صارم بالقول مشهور
وغاية الغايات في هذا الباب قول بشار بن برد فيمن عيَّره بالعمى ، وإن كان
من غير هذا المعنى :

وعيرني الأعداء والعيب فيهم وليس بعار أن يقال ضرير
إذا أبصر المرء المروءة والتقى فإن عمى العينين ليس بضير
رأيت العمى أجراً وذخراً وعصمة وإني إلى تلك الثلاث فقير
ومن طرائف أبي العلاء أنه لما فرغ من تصنيف كتابه اللامع العزيزي في
شرح ديوان المتنبي ، وقرئ عليه ، أخذ الجماعة في وصفه ، فقال : كأنما نظر
المتنبي إلى بلحظ الغيب حيث يقول :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي واسمعت كلماتي من به صمم
وكان أبو حزم مكّي بن ريان المقرئ الضرير الملقب بصائن الدين يتعصب
لأبي العلاء ، ويضطرب إذا قرئ عليه شعره للجامع بينهما من العمى والأدب ،

فسلكت مسلكه في النظم . كذا ذكر ابن خلدكان نقلا عن ابن المستوفي .
وتوفي رحمه الله يوم الجمعة ، ثالث ، وقيل ثاني ، وقيل ثالث عشر ربيع
الأول سنة ٤٤٩ بالمعرة ، في خلافة القائم العباسي ، وله من العمر نحو ست
وثمانين سنة ، ومرض ثلاثة أيام ، ولم يكن عنده غير بنى عمه ، فقال لهم في اليوم
الثالث : اكتبوا عني ، فتناولوا الشوى والأقلام ، فأملى عليهم غير الصواب ، فقال
لهم القاضي أبو محمد عبد الله التتوخي : أحسن الله عزاءكم في الشيخ فإنه ميت .
فمات من غده ، ودفن في ساحة من دور أهله . قال القفطي : أتيت قبره سنة
خمسین وستمائة ، فإذا هو في ساحة من دور أهله وعليه باب ، فدخلت فإذا القبر
لا احتفال به ، ورأيت عليه خبازي يابسة ، والموضع على غاية ما يكون من الشعث
والإهمال . وقال الذهبي وقد رأيت قبره بعد مائة سنة من رؤية القفطي ، فرأيت
نحواً مما حكى . انتهى . ويقال إنه أوصى أن يكتب عليه

هذا جناه انى على وما جنيت على أحد

ونقل الصفدي عن خط علاء الدين الوداعي قال : زرت قبره بالمعرة رحمه الله
تعالى في ربيع الأول سنة تسع وسبعين وستمائة ، ولم أر عليه شيئاً من ذلك ، وقد
دثر ولصق بالأرض ، وعملت هذين البيتين :

قد زرت قبر أبي العلاء المرتضى لما أتيت معرة النعمان

وسألت من غفر الخطايا أنه يهدي إليهم رسالة الغفران

قلت : وقبره معروف إلى اليوم أي سنة ١٣٢٧ بالمعرة ، ولأهلها اعتقاد
كبير فيه ، ويزعمون أن الماء إذا بيت في قارورة عند قبره ، وشربه في الغد صبي
به حبسة في لسانه ، أو بلادة في ذهنه ، زال ذلك عنه ببركة أبي العلاء .

وبن يافوت في « إرشاد الأرباب » عن ابن الهبارية ، أن السبب في وفاة

أبي العلاء مكاتبات جرت بينه وبين أبي نصر بن أبي عمران داعي الدعاة بمصر ،
دعت إلى الأمر بإحضاره إلى حلب ، ووَعَدَهُ على الإسلام خيراً من بيت المال ،
فلما علم أنه يحمل للقتل أو الإسلام سَمَّ نفسه فُتات . قال ياقوت : وقد ظفرت بتلك
الرسائل ، فلم أجد بها ما يدل على ما ذهب إليه ابن الهبارية . انتهى . وأقول :
هذه الرسائل هي التي لخصها ياقوت في كتبه المذكور ، وقد ظفرت بها أنا أيضاً ،
وهي عندي تامة في نسخة مخطوطة ، وليس فيها شيء من ذلك [وبعد فأي
إسلام كان يريد منه داعي الدعاة ، وهو رئيس الباطنية في الدولة الفاطمية ،
والداعي إلى مذهبهم ، ونحلة القوم معروفة لا تحتاج لبيان . ومن راجع دعواتهم
في خطط المقرئى علم كيف كانوا يأخذون الداخل في مذهبهم بتشكيكه في دينه
أولاً ، ثم الخروج به رويداً رويداً من الإسلام ، حتى ينتهوا به إلى الإلحاد . فهل
كان ما عليه هؤلاء القوم هو الإسلام في نظر ابن الهبارية حتى يتبجح
بهذه الدعوى ؟]

وكان رحمه الله قصير القامة ، نحيف الجسم ضعيفه ، مشوه الوجه بآثار الجدري ،
ومُنِيَ في آخر عمره بالإقعاد ، ولما مات ختم عند قبره في أسبوع واحد مائة ختمة ،
وفي رواية مائتان ، واجتمع عليه خلق كثير ، وأنشد أربعة وثمانون شاعراً
مراثيهم فيه . منها قصيدة طويلة لتلميذه علي بن همام ، يقول فيها :

إن كنت لم ترق الدماء زهادة فلقد أرقّت اليوم من جفنى دما
سيرت ذكرك في البلاد كأنه مسك تضح منه سمعا أو فسا
وترى الحبيج إذا أداروا ليلة ذكراك أوجب فدية من أحراما
قال ياقوت : كأنه يقول إن ذكرك طيب والطيب لا يحل للمُحرم ، فتعجب
عليه فدية . ورثاه أبو الرضى عبد الرحمن بن نوت المعري بقصيدة نذكر منها
ما وقفنا عليه في « الكوكب الثاقب » لعبد القادر السَّلوّى ، وهو :

سمر الرماح وبيض الهند تشتور
 والدهر فاقد أهل العلم قاطبة
 فهل تُرى بك دار العلم عالمة
 والعلم بعدك علم فات منصله
 ورثاه الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أبي حصينة المعري بقوله :
 العلم بعد أبي العلاء مضيع
 أودى وقد ملأ البلاد غرائبها
 ما كنت أعلم وهو يودع في الثرى
 جبل ظننت وقد تزعر ركنه
 وعجبت أن تسع المعرة قبره
 لو فاضت المهجات يوم وفاته
 تنصرم الدنيا وتأتى بعده
 لا تجمع المال العتيد وجد به
 وإن استطعت فسر بسيرة أحمد
 رفض الحياة ومات قبل مماته
 عين تسهد للعفاف وللتقى
 شيم تجمله فهن بلحده
 جادت ثراك أبا العلاء غمامة
 ما ضيع الباكي عليك دموعه
 قصدتك طلاب العلوم ولا أرى
 مات النُّهى وتعطلت أسبابه
 في أخذ ثأرك والأقدار تعتذر
 كأنهم بك في ذا القبر قد قبروا
 أن قد تزعر فيها الركن والحجر
 والفهم بعدك قوس ما له وتر
 والأرض خالية الجوانب بلقع
 تسرى كما تسرى النجوم الطلّع
 أن الثرى فيه الكواكب تودع
 أن الجبال الراسيات تزعر
 ويضيق بطن الأرض عنه الأوسع
 ما استكثرت فيه فكيف الأدمع
 أم وأنت بمثله لا تسمع
 من قبل تركك كل شيء تجمع
 تأمن خديعة من يغر ويخدع
 متطوعا بأبر ما يتطوع
 أبداً وقلب المهيمن يخشع
 تاج واسكن بالثناء يُرصع
 كندی يديك ومزنة لا تقلع
 إن الدموع على سواك تضيع
 للعالم بابا بعد بابك يقرع
 وقضى التأدب والمكارم أجمع

فصل في نشأته وطلبه العلم ورحلته

نشأ بالمعرة ، وأخذ النحو واللغة عن أبيه ، وعن محمد بن عبد الله بن سعد النحوي بحلب ، وحدث عن أبيه وجده . ثم رحل إلى بغداد ، فسمع من عبد السلام بن الحسين البصري هكذا ذكر السيوطي في بغية الوعاة ، قال : وقد أسندنا حديثه في الطبقات الكبرى ، وله ذكر في جمع الجوامع . وذكر غيره أن أبا العلاء لما قدم بغداد ، قصد أبا الحسن علي بن عيسى الربعي ليأخذ عنه ، فلما أراد الدخول عليه ، قال الربعي : ليدخل الإصطبل ؛ فخرج مغضباً ولم يعد إليه . والإصطبل بلغة أهل الشام الأعمى . قلت : وهي لفظة معربة ، ذكرها الخفاجي في شفاء الغليل ، قال : ولذا قال ابن عباد : جرّوا الإصطبل في قصته مع المعري . ولعل الخفاجي أراد المرتضى ، وهم فذكروا ابن عباد . وستأتي القصة . وذكر أبو الفداء أنه دخل بغداد واستفاد من علمائها ، ولم يُتَلمَذْ لأحد أصلاً ، وهو يخالف ما ذكره السيوطي وابن خلكان وغيرهما . وكان قد رحل أولاً إلى طرابلس ، وبها خزائن كتب موقوفة ؛ فأخذ منها ما أخذ من العلم . ثم رحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ فأقام بها سنة وسبعة أشهر ، ثم رجع إلى المعرة وأقام بها إلى وفاته . وقول ابن خلكان إنه دخل بغداد سنة ٣٩٨ ، ودخلها ثانياً سنة ٣٩٩ . وأقام بها سنة وسبعة أشهر ، لا يستقيم مع ما سيرد عليك في فصل مؤلفاته ، من تصريحه عن نفسه أن رجوعه إلى المعرة ولزومه منزله كان سنة ٤٠٠ . وقبل قدومه إلى المعرة بمدة يسيرة ماتت أمه ، وأصيب في مال له ، فراثها بقصيدة ميمية طويلة ، وأخرى بائية ، وكتب إلى بغداد يخاطب صديقه وتلميذه

القاضي أبا القاسم علي بن المحسن التنوخي بقصيدة ضمنها أغراضاً يقول فيها معتذراً
عن مفارقتة العراق :

أثارتني عنكمُ أصران والدة لم ألقها وراء عاد مسفوتا^(١)
أحيها الله عصرَ البينِ ثم قضى قبل الإياب إلى الذخرين أن موقا
لولا رجاء لقائِها لما تبعت عَنِّي دليلاً كَسِرَ الغمدَ إصليتا^(٢)
ولا صحبتُ ذئابَ الإنسِ^(٣) طاوية تراقب الجدى في الخضراء مسبوتا^(٤)

ولما استقر بالمعرة لزم داره ، وشرع في التصنيف والإفادة ، وأخذ عنه الناس ،
وقصده الطلبة من الآفاق ، وكتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار ، وسمى نفسه :
« رهن الحبسين » يعني حبس نفسه في المنزل ، وحبس بصره بالعمى .

وما فتئ وهو بعيد عن بلده ، يحن إليه ويشتاقه ، ويذكره في شعره ،
وفيه يقول :

سرى برقُ المعرة بعد وَهْن فبات برامة يصف الكألاً
شجوا ركباً وأفراساً وإبلاً وزاد فكاد أن يشجو الرحالاً
بها كانت جيــــــــــــــــادهم مهاري وهم مُردّاء وبُرُكُهم فِصالاً
وقال :

فيا برق ليس الكَرْخُ دارى وإنما رمانى إليه الدهر منذ ليل
فهل فيك من ماء المعرة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسال
وقال أيضاً :

(١) المسفوت : القليل البركة .
(٢) الإصليت : الماضي الصقيل .
(٣) يريد بذئاب الإنس الأصوص .
(٤) المسبوت : من السبات ، وهو النعاس .

متى سألت بغداد غنى وأهلها فأتى عن أهل العواصم سأل
وماء بلادى كان أنجع مشربا ولو أن ماء الكرخ صهبا جريال
على أنه لما أزمع الرحلة من بغداد، عز عليه فراقها، وفراق أودائه فيها، فقال
من قصيدة يحيب بها أبا على النهاوندى :

وردنا ماء دجلة خير ماء وزرنا أشرف الشجر النخيل
وزلنا بالجليل وما اشتفينا وغاية كل شيء أن يزولا
ونظم في توديعها قصيدة يقول فيها :

أودعكم يا آل بغداد والحشا على زفات ما يزين من اللذع
وداع ضني^(١) لم يستقل وإنما تحامل من بعد العثار على ظلمع
فبئس البديل الشام منكم وأهله على أنهم قومي وبينهم ربي
ألا زودوني شربة ولو أنني قدرت إذا أفنيت دجلة بالجرع
وأنى لنا من ماء دجلة نغبة^{رغبة} على الخمس من بعد الفاوز والرّبع
وقال من أخرى :

لقد نصحتني في المقام بأرضكم رجال ولكن رب نصح مضيع
فلا كان سيري عنكم رأى ملحد يقول بيأس من معاد ومرجع
أى لا كان سيري عنكم ذهاباً بلا إياب . أخرجه مخرّج الدعاء .

(١) يقال ضنى كرضى فهو ضنى وضن : مرض .

فصل في تلاميذه

قرأ على أبي العلاء ببغداد والمعرفة كثيرون ، واشتهر جماعة منهم بالاختصاص به ، والانتساب إليه في العلم ؛ كأبي المكارم عبد الوارث بن محمد الأبهري ، وأبي تمام غالب بن عيسى الأنصاري ، والخليل بن عبد الجبار القزويني ، ومحمد بن أحمد ابن أبي الصقر الأنباري وغيرهم . وروى عنه : القاضي أبو القاسم علي ابن القاضي الحسن ابن القاضي التنوخي لم وكان من أقرانه ، أخذ عنه وهو ببغداد ، وصحبه ، واتصلت صحبته بالتهريزي بسبب أبي العلاء . ولد القاضي المذكور ، سنة ٣٦٥ بالبصرة ، كما في « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، أوفى سنة ٣٥٥ كما في « فوات الوفيات » لابن شاكر ، والأول أصح . وتوفي سنة ٤٤٧ ، قبل وفاة أبي العلاء بنحو سنتين . وكان صدوقا في حديثه ، وقبالت شهادته عند المحكام في حدائمه ، ولم يزل على ذلك مقبولا إلى آخر عمره ، وتولى قضاء عدة نواح ، منها المدائن وأعمالها ، وأذربيجان والبردان وغير ذلك . وكانت فيه دعاية ، يروى أن إسكافا اجتاز بداره وهو نائم ، فصاح شرّاك النعال وأزعجه بصياحه ، فقال لغلامه : اجمع كل نعل في الدار وأعطاها لهذا يصلحها ويشغل بها ، ثم نام واشتغل الإسكاف بإصلاحها إلى آخر النهار ، فلما كان في اليوم الثاني فعل كذلك ، ولم يدعه ينام ، فقال للغلام : أدخله ، فلما دخل قال له : أمس أصلحت كل نعل عندنا ، واليوم تصيح علي بابنا ، هل بلغك أننا نتصافع بالنعال ونقطعها ؛ يا غلام ، قفاه .

وسمع امرأة تقول لأخرى : كم عمر ابنتك ؟ فقالت : رزقتها يوم صفع

القاضي وضرب بالسياط ، فقال لها : أصار صفعي تاريخاً لك ما وجدت تاريخاً غيره ؟

ومن قرأ على أبي العلاء ، وهو ببغداد : الأديب المشهور بابن فورجة البروجردى ، ذكر ذلك السيوطى . وهو صاحب « الفتح على أبي الفتح » ، و« التبجنى على ابن جنى » ، يرد فيهما على ابن جنى فى شرح شعر المتنبى / واختلفوا فى اسمه فقيل محمد بن حمد ، وسماه مجد الدين الشيرازى فى كتابه « البلغة فى أئمة اللغة » : حمد بن محمد ، ومن شعره :

أيها القتالى بعينيه رفقا إنما يستحق ذا من قلاكا
أكثر اللأمون فيك عتابي أنا واللأمون فيك فداكا
إن لى غيرة عليك من اسمى إنه دائماً يقبل فاكا

قال السيوطى : هذا الشعر يؤيد أن اسمه حمد . واختلفوا أيضاً فى اسم جده فورجة ؛ فقال السيوطى : بضم الفاء وسكون الواو وتشديد الراء المهملة وفتح الجيم . وقال ابن شاكر فى « فوات الوفيات » : فوزجة بالفاء المضمومة ، وبعد الواو والزاي جيم مشددة . وفى النسخ خلط فى ميلاده ووفاته .

وأشهر تلاميذ أبي العلاء : أبو زكريا يحيى بن على الخطيب التبريزى ، صاحب المصنفات النفيسة ، كشرح الحاشية والمعلقات وتهذيب ألفاظ ابن السكيت وغيرها ، ولد سنة ٤٢١ . وتوفى فجأة ببغداد سنة ٥٠٢ . ودخل مصر فى عنقوان شبابه ، ثم استوطن بغداد ، ودرّس الأدب بالنظامية ، وكان إماماً فى اللغة ثقة فيها ، إلا أنه كان مُسْتَهْتَكاً بالشراب / وكان سبب رحلته إلى أبى العلاء أنه لحصل على نسخة من كتاب « التهذيب » للأزهري فى اللغة فى عدة مجلدات ، وأراد تحقيق ما فيها ، وأخذها عن رجل عالم باللغة ، فدلوه على

أبي العلاء ، فجعل الكتب في محلاة ، وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرة ، ولم يكن له ما يستأجر به مراكباً ، فنفذ العرق من ظهره إليها ، فأثر فيها . وكانت بعض الوقوف ببغداد ، إذا رآها من لا يعرف صورة الحال ظن أنها عريقة ، وليس بها سوى عرق التبريزي .

وقال العلامة عبد الهادي نجا الأبياري من شيوخ هذا العصر المتوفي سنة ١٣٠٥ ، في كتابه « القصر المبني على حواشي المغني » عند كلامه على أبي العلاء المعري : « ومما يدل على فضله ، أن الخطيب أبا زكريا يحيى التبريزي قرأ الأدب عليه ورحل إليه من تبريز ، وسيدى عبد القادر الجيلاني ، قرأ الأدب على التبريزي هذا ، فالشيخ شيخ شيخ الجيلاني . والله أعلم » .

قلت : والذي قاله الشيخ من قراءة الجيلاني الأدب على التبريزي صحيح ، ذكره ابن شاكرو في ترجمة الجيلاني من « فوات الوفيات » .

فصل في مبلغ علمه وذكائه

اتفق محبوه ومبغضوه على أنه كان وافر البضاعة من العلم ، غزير المادة في الأدب ، إماماً فيه ، حاذقاً بالنحو والصرف ، نسيجاً وحده في الذكاء والفهم وقوة الحافظة . أما اللغة وحفظ شواهدا وتقييد أوابدها فقد كان فيها أعجوبة من العجائب ، وحسبك أنهم إذا عددوا مَنْ رزقوا السعادة في أشياء ، لم يأت بعدهم من نالها — عدّوا أبا العلاء ممن تفرد بسعة الاطلاع على اللغة . وكلامه الذي أورده في رسالة الغفران في بيتي النمر بن تولب ، وتغييره القوافي ثم وتنزيلها على سائر حروف المعجم حلا حرف الطاء — يدل على اطلاع كبير ، وتمكن من اللغة والأدب اقل ان يتفق نظيره لشخص . وخلاصة ما ذكره أن خلفا الأحمر تذاكر يوما مع أصحابه في قول النمر :

أَلَمْ يَصْخَبْنِي وَهُمْ هُجُوعٌ خَيَالٌ طَارِقٌ مِنْ أُمِّ حِصْنِ
لَهْلَهٍ مَا تَشْتَهِي عَسَلًا مُصَقًّى إِذَا شَاءَتْ وَحَوَّارِي بِسَمْنِ

فقال لهم : لو كان موضع أم حِصْن ، أم حَفْص ؛ ما كان يقول في البيت الثاني ؟ فسكتوا ، فقال : حَوَّارِي بِلَهْصٍ ، يعني الفالوذج . والحواري الدقيق الأبيض وهو اللُّباب ، فغير أبو العلاء قوافي البيتين على حروف المعجم ، وربما أتى في الحرف بالقافيتين والثلاث ، ولا يتفق هذا إلا لمن رزق حظا وافرا من الاطلاع ، والمسألة مبسوسة في الرسالة ، فارجع إليها إن شئت لتعلم صحة ما قلناه .

وذكر غير واحد من اللغويين أن أبا العلاء لما دخل بغداد ، اعترضوا عليه في حلقة ابن الحسن ، لقوله :

ويوشع ردَّ يُوْحَى بعضَ يَوْمٍ وأنت متى سَفَرْتَ رَدَدْتَ يُوْحَا
ويُوح ويُوْحى بضمهما من أسماء الشمس ، فقالوا له : صحت إنما هو يوح بالباء
الموحدة . واحتجوا عليه بكتاب الألفاظ لابن السكيت ، فقال لهم : هذه
النسخ التي بأيديكم غيرها شيوخكم ، ولكن أخرجوا ما في دار العلم من النسخ
العتيقة ، فأخرجوها فوجدوها مقيدة كما قال .

واحتج به ياقوت في معجم البلدان في تصحيح لفظة الضُّراح ردًّا على من
قال إنها بالصاد المهملة ، فقال : ألا ترى إلى أبي العلاء أحمد بن سليمان المعري ،
كيف جمع بين الضُّراح والضَّرِيح إرادة للتجنيس والطباق ، فقال :

لقد بلغ الضُّراح وساكنيه نثاك وزار من سكن الضَّرِيح

والنثا مقصوراً وبتقديم النون على الثاء : الخبر . ومن غريب ما يروونه عنه
في ذلك أنه دخل على الشريف أبي القاسم المرتضى أخى الشريف الرضى ،
وهو ببغداد ، فعثرَ برجل فقال : من هذا الكلب ؟ فقال أبو العلاء : الكلب من
لا يعرف للكلب سبعين اسماً . وسمعه المرتضى فأذناه واختبره فوجده عالماً مُشَبَّعاً
بالفطنة والذكاء ، فأقبل عليه إقبالا كثيراً . قلت : ومن هذا هرب جلال الدين
عبد الرحمن السيوطى فجمع أكثر من ستين اسماً للكلب ، ونظمها في أرجوزة
سمّاها « التبرى من معرفة المعري » ، رأيت أن أورها هنا إتماماً للفائدة لعزة
وجودها ، ثم أعقبها بشرح يميّط اللثام عن الأسماء الواردة فيها ، وأتبعه بما
استدركته على الناظم من أسماء الكلب ، وهى :

لله حمْدٌ دائمٌ الوليُّ ثمَّ صَلَاتُهُ عَلَى النَّبِيِّ
قدْ نَقَلَ الثَّقَاتُ عَنْ أَبِي الْعَلَاءِ لما أَتَى الْمُرْتَضَى وَدَخَلَا
قال له شَخْصٌ به قد عَثَرَا مَنْ ذَلِكَ الْكَلْبُ الَّذِي مَا أَبْصَرَا

- فَقَالَ فِي جَوَابِهِ قَوْلًا جَلِيًّا
الكلب من لم يدر من أسمائه
وقد تَتَبَّعْتُ دَوَاوِينَ اللُّغَةِ
فَجِئْتُ مِنْهَا عَدَدًا كَثِيرًا
وقد نَظَّمْتُ ذَاكَ فِي هَذَا الرَّجَزِ
فَسَمِعَ هَدِيتَ بِالتَّسْبِيحِ
- ١ — مِنْ ذَلِكَ الْبَقَاعِ ثُمَّ الْوَارِعِ
٢ — وَالْخَيْطَلُ السُّحَامِ ثُمَّ الْأَسَدُ
٣ — وَالْأَعْنَقُ الدَّرْبَاسُ وَالْعَمَلَسُ
٤ — وَالنَّعْمُ الطَّلُقُ مَعَ الْعَوَاءِ
٥ — وَعَدَّ مِنْ أَشْمَائِهِ الْبَصِيرُ
٦ — وَالْعَرَبُ قَدْ سَمَوْهُ قَدْ مَنَّ فِي النَّفِيرِ
٧ — وَهَكَذَا سَمَوْهُ دَاعِيَ الْكَرَمِ
٨ — وَثَمَنَهُ وَكَلِبَ وَهَبْلَعِ
٩ — ثُمَّ كَسَبَ عِلْمَ الْمَذْكُورِ
١٠ — وَالْقَلْبَطِيُّ وَالسَّالُوقِيُّ نِسْبَةُ
١١ — وَالْمُسْتَطِيرُّ هَائِجُ الْكَلَابِ
١٢ — وَاللَّارِصُ وَالْجِرْوُ مُثَلَّثُ الْفَاءِ
١٣ — وَالسَّمْعُ فِيمَا قَالَ الصُّوْلُ
١٤ — وَنَقَلُوا الْأَرَاهِدُونَ لِلْكَلَابِ
١٥ — مِثْلُ قَطَامٍ عَلَمًا مَبْنِيًّا
- مَسِيرًا لِدَلَالَةِ الْمُجْهَلِ
سَبْعِينَ مَوْمِيًا إِلَى عِلَالِهِ
لَعَنِي أَجْمَعُ مِنْ ذَا مَبْلَغِهِ
وَأَرْجَى فِيمَا بَقِيَ تَبَسُّيرًا
لِيَسْتَفِيدَهَا الَّذِي عَنْهَا عَجَزَ
يَا صَاحِبَ مِنْ مَعَرَّةِ الْمَعْرِىِ
وَالْكَلْبُ وَالْأَبْقَعُ ثُمَّ الزَّارِعُ
وَالْعُرْبُجُ الْعَجُوزُ ثُمَّ الْأَعْقَدُ
وَالْقَطْرُبُ الْفُرْنِيُّ ثُمَّ الْفَاحْسُ
بِالْمَدِّ وَالْقَصْرِ عَلَى السَّوَاءِ
وَفِيهِ لُغَزٌ قَالَهُ خَبِيرُ
دَاعِيَ الضَّمِيرِ ثُمَّ هَاءُ فِي الضَّمِيرِ
مَشِيدُ الذِّكْرِ مَتَمُّ النِّعَمِ
وَمَنْذَرُ وَأَهْوَجٌ وَهَجْرَعُ
مِنْهُ عَنِ الْهَمْزَةِ وَاللَّامِ عَرَى
كَذَا النَّصِيبِيُّ بِذَلِكَ أَشْبَهُ
كَذَا رَوَاهُ صَاحِبُ الْعُبَابِ
لَوْلَا الْكَلْبُ أَسَامُ تُلْقَى
وَهُوَ أَبُو خَالِدٍ الْمَسْكُونِ
وَكَلْبَةٌ قِيلَ لَهَا أَيْضًا كَسَابُ
وَكَسَبَةٌ كَذَلِكَ نَقْلًا رِيًّا

- ١ — وَخُذْ لَهَا الْعَوَاقِقَ وَالْمَمَاقِيحَ
١ — وَوَلَدَ الْكَلْبِ مِنَ الذَّبِّ سَمٌ
١ — وَالْحَقُّوا بِذَلِكَ الْخَيْمَةَ
١ — وَوَلَدَ الْكَلْبَةِ مِنَ ذَيْبٍ سُمِي
٢ — ثُمَّ كَلَابُ الْمَاءِ بِالْهَرَا كَلَّةٌ
٢ — كَذَاكَ كَلْبُ الْمَاءِ يُدْعَى الْقَنْدَسَا
٢ — وَكَلْبَةُ الْمَاءِ هِيَ الْقَضَاعَةُ
٢ — وَعَدُّدُوا مِنْ جَنَسِهِ ابْنُ آوَى
وَدُؤْلٌ وَدُؤْلٌ وَالدَّالُّ الْآنُ
كَذَلِكَ الْعِلْوَضُ ثُمَّ النَّوْفَلُ
وَالْوَعُ وَالْعِلْوَشُ ثُمَّ الْوَعُوعُ
هَذَا الَّذِي مِنْ كُتُبِ جَمْعَتِهِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَهَا خِتَامُ
- وَلَعَوَّةٌ وَكُنْ لِدَاكَ رَاوِيَةٌ
عُسْبُورَةٌ وَإِنْ تُرِلْ هَا لَا تَلَمْ
وَإِنْ تَمُدَّ فَتَهُوَ جَاءَ سَمْعًا
وَأَعْلَبُ فِيمَا رَوَوْا بِاللَّيْسَمِ
تَدْعَى وَقَسَ فَرْدًا عَلَى مَا شَا كَلَّةٌ
فِيمَا رَوَى ابْنُ دَحِيَّةٍ قَدْ انْتَسَى
جَمِيعُ ذَلِكَ أَثْبَتُوا سَمَاعَهُ
وَمِنْ سَمَاءِ ذَلِكَ قَدْ سَاوَى
وَأَفْتَحَ وَضُمَّ مُعْجَمًا لِلذَّالِ الْآنُ
وَالْعِلْوَضُ الشَّرْحُوبُ فِيمَا نَقَلُوا
وَالشَّغْبَرُ الْوَأْوَاءُ فِيمَا يُسْمَعُ
وَمَا بَدَأَ مِنْ بَعْدِ ذَا الْحَقَّةِ
ثُمَّ عَلَى نَبِيِّهِ السَّلَامُ

تمت الأرجوزة . وانشرع في شرحها معتمدين على ما دونوه في كتب
اللغة والأمثال والحيوان ، وقد وضعنا أرقاماً للأبيات يرجع إليها في هذا
الشرح ، فنقول :

(١) الباقِعُ والأُبْقَعُ من الكلاب الذي خالط بياضه لون آخر ، والبَقَعُ في
الطير والكلاب بمنزلة البَلَقِ في الدواب ، وقول الأَخْطَلُ :
كلوا الضَّبَّ وابنَ العَيْرِ والباقِعَ الذي يَبْيِيتُ يَعْسُ الثَّيْلَ بين الثَّغِيرِ
قيل أراد الكلب ، وقيل غير ذلك ، والعرب تقول : لا خير في بقع
الكلاب . وترى التَّبْقِيعَ هُجْنَةً فيها ، وخير الكلاب عندها ما كان لونه يذهب

إلى لون الأسد ، وخير كلاب الصيد البيض . وفي الخصاص : البَقَعُ بياض في صدر الكلب الأسود ، وهي البُقْعَةُ ، وكلبٌ أَبْقَعَ والجمع بُقْعَان . والوازع الكلب لأنه يَزَعُ الذئبَ عن الغنم أى يكفُّه ، ويقال له ابن وازع أيضاً . والسكراب كل سَبْعٍ عقور ، ثم غلب على هذا النابح ، كما في القاموس . وقال شارحه : شيخنا : بل صار حقيقة لغوية فيه لا تحتمل غيره ، ولذلك قال الجوهري وغيره : هو معروف ، ولم يحتاجوا لتعريفه لشهرته . انتهى . وهو من الأسماء التي تسمت بها العرب ؛ فمن مشهورهم في ذلك : كُليبُ بن ربيعة من بني تغلب بن وائل ، وهو الذي ضربوا به المثل ، فقالوا : أعزُّ من كليب وائل ، وقامت الحرب بسببه بين بكرٍ وتغلب . وكان اسمه في الأصل وائلا ؛ وإنما سموه كليباً ، لأنه بلغ من غمه أنه كان يحسب الكلاً فلا يقرب حماه ، ويجير الصيد فلا يهاج . وكان إذا مر بروضة أعجبته ، أو غدير ارتضاه ، كنَّع كُليباً ثم رمى به هناك ، فحيث بلغ عواؤه كان حِمَى لا يرعى ، فلما حمى كُليبهُ للمرمى الكَلَّا قِيل : أعز من كليب وائل . ثم غلب هذا الاسم عليه حتى ظنوه اسمه ؛ كذا في مجمع الأمثال للميداني . وقوله : كنَّع هو بمعنى بضع وكوَّع أى ضربه فصيره مُعَوَّج الأكواع . ومنهم كليب بن حبشية بن سُلُول في خزاعة . وكتب بن عمرو بن لُؤى في بحيلة . وبنو كلب ، وبنو أكب ، وبنو كلبه وبنو كلاب ، قبائل معروفة ، منها في قریش كلاب بن مرة ، وفي هَوَازِن كلاب بن ربيعة بن صَعْنَعَة . أما ذو السكراب فهو عمرو بن العجلان أحد شعراء هذيل ، لقب به لأنه كان له كلب لا يفارقه . وعائد السكراب هو عبد الله بن مُصْعَب ، كان والياً للرشيد على المدينة ، لُقِّب بذلك لقوله :

مالي مَرِضْتُ فلمْ يَعدْني عائدُ منكم ويمرض كلبكم فأعود
وهو أحد من نطقوا في الشعر بكلمات غلبت شهرتها عليهم ، فلقَّبوا بها ،

وربما جمعت ما وقفت عليه من ذلك في رسالة مستقلة . والسبب الذي دعا العرب إلى تسمية أبنائها بمثل هذه الأسماء المستكرهة كالكلب والذئب والحجر والصخر ، هو ما ذكره الراغب وغيره أن أعرابياً سئل : لم سمّوا أبناءهم بالأسماء القبيحة ، وعبيدهم بالحسنة ؟ فقال : لأن أبناءهم لأعدائهم ، وعبيدهم لأنفسهم . قلت : وقد فصل الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر المشهور بابن قيم الجوزية مذاهب العرب في تسمية أبنائها تفصيلاً ترتاح إليه النفس ويثلج به الفؤاد ، فقال في آخر كتابه « مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة » عند الكلام على القال والطيرة ، ما نصه : وكانت لهم مذاهب في تسمية أولادهم : فمنهم من سموه بأسماء تفاؤلاً بالنظر على أعدائهم ، نحو غالب وغلاب ومالك وظالم وعارم ومنازل ومقاتل ومعرك ومسهر ومؤرق ومصبح وطارق : ومنهم من تفاؤل بالسلام كنسبيتهم بسالم وثابت ونحوه ، ومنهم من تفاؤل بليل الحظوظ والسعادة كسعد وسعيد وأسعد ومسعود وسعدى وغانم ونحو ذلك ، ومنهم من قصد التسمية بأسماء السباع ترهيباً لأعدائهم نحو أسد وليث وذئب وضرغام وشبل ونحوها ، ومنهم من قصد التسمية بما غلظ وخشن من الأجسام تفاؤلاً بالقوة كحجر وصخر وفهر وجندل ، ومنهم من كان يخرج من منزله وامراته تمخض ، فيسمى ما تلده باسم أول ما يلقاه ، كائناً ما كان ، من سبع أو ثعلب أو ضب أو كلب أو ظبي أو حشيش أو غيره . انتهى المقصود منه .

وأما ما سئى بالكلب أو أضيف إليه من البذاع والسيوف والأنهار وغيرها ، فنقد تركنا ذكره طائلاً للاختصار ، ونقتصر منها على قرية بحلب تسمى جب الكلب ، تعد من العجائب لاشتهارها ببئر فيها إذا شرب منها الكلب قبل أن يأتي عليه أربعون يوماً برأ . كذا ذكر صاحب القاموس في مادة ج ب ب .

وقال ياقوت في معجمه : حدثني مالك هذه القرية ابن الإسكافي ، وسأله عما يحكى عن هذا الجب وأن الذى نهشه الكلب الكلب إذا شرب منه برا ، فقال : هذا صحيح لا شك فيه . قال : وقد جاءنا منذ شهور ثلاث أنفس مكلوبين يسألون عن القرية ، فدُلُّوا عليها ، فلما حصلوا فى صحرائها اضطرب أحدهم وجعل يقول لمن معه : ار بطونى لثلاث يصل إلى أحدكم منى أذى ، وذلك أنه كان قد تجاوز أربعين يوماً منذ نهش ، فربط ، فلما وصل إلى الجب وشرب من مائه مات . وأما الآخرون فلم يكونوا بلغوا أربعين يوماً ، فشربوا من ماء الجب فبرأ . قال : وهذه عادته ، إذا تجاوز المنهوش أربعين يوماً لم تكن فيه حيلة . إلى أن قال : وهذه البئر هى بئر القرية التى يشرب منها أهلها . انتهى . قلت : ولا أدري ما فعل الله بالقرية والبئر ، وإنما خصصتها بالذكر دون غيرها تنبيهاً لأطباء هذا العصر ، لعلمهم يتوقفون للبحث والتنقيب عنها ، حتى إذا وجدوها امتحنوا ماءها ، فربما كان فيه من الأملاح أو غيرها ما من خاصيته شفاء هذا المرض ، وعسى ألا تأخذهم حمية جاهلية فيضربوا بهذا القول عرض الحائط بغير حجة سوى ما اعتادوه من احتقار أقوال علمائنا المتقدمين ، فلولا تجربة هذا الماء وظهور نفعه فى المصابين قبل أن يجاوزوا أربعين يوماً ، أى قبل استفحال الداء وتمكنه منهم ، لما استفاض خبره ، ونقله هؤلاء الأعلام ، ولا فائدة لثلاثهم فى التواطؤ على الكذب فى مثله .

والزَّارِعُ بتقديم الزاى على الراء السكلب ، وفى القاموس : زارع اسم كلب ، ومنه قيل للكلاب : أولاد زارع ، وفيه أيضاً فى مادة ذرع بالذال المعجمة : أولاد ذارع ، وذراع بالكسر : الكلاب . وفى الخصاص : قال على بن حمزة : ابن زارع وابن ذارع وابن وازع : الكلب ، وربما سُمى وازعا أيضاً . انتهى .

«الْحَيْطَلُ» بفتح الحاء المعجمة وسكون الياء المثناة التحتية ، وفتح الطاء المهملة
وبعدها لام : الكلب . والسُّحَام بضم السين المهملة ، وبعدها حاء مهملة ، مأخوذ من
السُّحْمَة وهي السَّوَاد ، والذي يؤخذ من نصوص كتب اللغة أنه عَلِمَ عَلَى كَلْبٍ
مَعَيْنٍ لَا اسْمَ جِنْسٍ لِلْكَلابِ . قال الجوهري : سَحَام اسم كلب ، واستشهد بقول ليبيد :
فَتَقَصَّدْتُ مِنْهَا كَسَابٍ فَضُرِّجَتْ بِدَمٍ وَغُودِرَ فِي الْمَسْكِرِ سَحَامُهَا
وواقفه في ذلك شُرَّاحُ المِلقَات ، وهو ظاهر من سياق البيت . وفي لسان
العرب : سَجَمٌ وَسُحَامٌ من أسماء الكلاب ، ثم أنشد بيت ليبيد . وذهب صاحب
القاموس إلى أن صوابه بالمعجمة قال : وَوَرِهَ الْجَوْهَرِيُّ . قلت : لا وَهْمٌ ؛ فقد ذكر
بعض شراح المِلقَات أنه يروى بهما ، وواقفه الميداني في مجمع الأمثال عند تفسير
تقولهم (هَنِيئًا لِسُحَامٍ مَا أَكَلَ) فإنه أورد البيت ثم قال : ويروى سَحَامُهَا بِالْخَاءِ .
وهذا المثل يضرب في الشماة بهلاك العدو . وقول الزَّوْزَنِيَّ في شرح المِلقَات
إنه اسم كلبة ، يخالف ما أجمعوا عليه من أنه اسم كلب ذكرٍ . والله أعلم . والأسد
لم أَعَثِرَ فِي كِتَابِ اللُّغَةِ عَلَى أَنَّهُ يُطْلَقُ عَلَى الْكَلْبِ ، وَإِنَّمَا الَّذِي فِيهَا أَنَّ
الْكَلْبَ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَسَدِ . والعَرُبُ تُجْ بضم العين المهملة ، وسكون الراء وضم الباء
الموحدة ، وبعدها جيم : السَّكَبُ الضَّخْم ، كما في القاموس ، أو كلب الصيد ، كما في
اللسان . والعَجُوزُ بفتح العين المهملة وضم الجيم وبعدها واو ساكنة وزاي : من
أَسْمَاءِ الْكَلْبِ . والأَعْقَدُ بالعين المهملة ، والقاف ، والدال المهملة : السَّكَبُ ، لانهقاد
ذَنَبِهِ ، جعلوه اسما له معروفا ، قال جرير :

تَبُولُ عَلَى الْقَتَادِ بَنَاتُ تَيْمٍ مَعَ الْعُقْدِ النَّوَاجِرِ فِي الدِّيَارِ
قالوا : ليس شيء أحب إلى السَّكَبِ من أن يبول على قتادة أو على شجيرة
صغيرة غيرها . وروى الجاحظ في كتاب «الحيوان» لساور بن هند يهجو قوماً
بأكل الكلاب :

إذا أَسَدِيَّةٌ وَلَدَتْ غُلَامًا فَبَشَّرَهَا بِأُوَيْمٍ فِي الْغُلَامِ
يُخَرِّسُهَا نِسَاءُ بَنِي دُيُورٍ بِأَخْبَثِ مَا يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ
تَرَى أَظْفَارَ أَعْقَدَ مُلَقِيَاتٍ بِرَأْسِهَا عَلَى وَضَمِ الثُّمَامِ
يُخَرِّسُهَا أَيُّ يَصْنَعْنَ لَهَا الْخُرْسَةَ وَهِيَ طَعَامُ النَّفْسَاءِ ، وَدُيُورٍ بِالتَّصْغِيرِ أَبُو قَبِيلَةٍ
مِنْ أَسَدٍ ، وَالْوَضَمُ بِالتَّحْرِيكِ مَا وَقِيتَ بِهِ اللَّحْمُ عَنِ الْأَرْضِ مِنْ خَشَبٍ أَوْ حَصِيرٍ ،
وَالثُّمَامُ نَبْتٌ ضَعِيفٌ لَا يَطُولُ كَانُوا يَفْرَشُونَهُ تَحْتَ الْأَسَاقِي وَنَحْوِهَا ، وَرَبَّمَا حَشَوْا
بِهِ وَسَدُّوا خِصَاصَ الْبُيُوتِ .

(٣) الْأَعْنَقُ بِالْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ وَالنُّونِ وَالْقَافِ : الْكَلْبُ فِي عُنُقِهِ بَيَاضٌ ، وَيُقَالُ
لِلْقَلَادَةِ الَّتِي تَوْضَعُ فِي عُنُقِ الْكَلْبِ : مِعْنَقَةٌ ، وَقَدْ أَعْنَقَهُ إِذَا قَلَدَهُ إِيَّاهَا ، وَيُقَالُ
لَهَا أَيْضًا الْجِدَّةُ بِالْكَسْرِ ، وَكَذَلِكَ الْأَرْبَعَةُ بِالضَّمِّ : قَلَادَةُ الْكَلْبِ الَّتِي يَقَادُ بِهَا .
وَالدَّرْبَاسُ بِكَسْرِ الدَّالِ الْمَهْمَلَةِ وَسُكُونِ الرَّاءِ وَبَعْدَهَا بَاءٌ مُوَحَّدَةٌ وَأَلْفٌ وَسِينٌ
مَهْمَلَةٌ : الْكَلْبُ الْعَقُورُ . وَالْعَمَّاسُ بِفَتْحِ الْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ وَالْمِيمِ وَاللَّامِ الْمَشْدُودَةِ ، وَبَعْدَهَا
سِينٌ مَهْمَلَةٌ : كَلْبُ الصَّيْدِ كَمَا فِي الْقَامُوسِ ، أَوْ الْكَلْبُ الْخَبِيثُ كَمَا فِي اللِّسَانِ .
عَلَى أَنَّهُ أَنْشَدَ بَعْدَ ذَلِكَ قَوْلَ الطَّرِّمَاحِ يَصِفُ كَلَابَ الصَّيْدِ :

يُوزَعُ بِالْأَمْرَاسِ كُلِّ عَمَّاسٍ مِنَ الْمُطْعِمَاتِ الصَّيْدِ غَيْرِ الشَّوَّاحِنِ
وَقَالَ فِي تَفْسِيرِ يَوْزَعٍ : يَكْفُ ، وَرَوَاهُ فِي مَادَّةِ وَدَعٍ : يَوْدَعُ ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّ
يَقْلُدُهَا وَدَعَ الْأَمْرَاسَ .

وَالْقَطْرُبُ بِضَمِّ الْقَافِ وَسُكُونِ الطَّاءِ الْمَهْمَلَةِ وَضَمِّ الرَّاءِ ، وَبَعْدَهَا بَاءٌ مُوَحَّدَةٌ :
الصَّغِيرُ مِنَ الْكَلَابِ . وَفِي الْخُصَصِ : الْقَطْرَبُ (أَيُّ بِفَتْحِ الْقَافِ وَالرَّاءِ) صَغَارُ
الْكَلَابِ ، زَعَمُوا أَنَّ الْوَاحِدَ قَطْرُبٌ ، وَلَيْسَ هُوَ جَمْعٌ بَلْ اسْمٌ لِلْجَمْعِ
انْتَهَى مُلَخَّصًا .

والفرني بضم الفاء وسكون الراء وبعدها نون وياء مشددة : الكلب
نخم ، قال العجاج :

وطاح في الممركة الفرني

قال ابن بري : أراد الضخم من الكلاب ، وقال غيره : إنما أراد الرجل
ليلي الضخم .

والفلحس بفتح الفاء وسكون اللام وفتح الحاء المهملة وبعدها سين مهملة :
كلب . قال الجاحظ في كتاب الحيوان : ويقال للكلب فلحس ، وهو من
فات الحرص والإلحاح ، ويقال : فلان أسأل من فلحس . وفلحس رجل من
بشيبان كان حريصاً رغبياً ومُدحفاً مُحِثاً ، وكل مُفَبِّلٍ فهو عندهم فلحس .
تمهي . قلت : وإنما سُموا الكلب بذلك لأنه موصوف عندهم بالحرص والإلحاح ،
حتى قالوا في أمثالهم : (أَلَحُّ مِنْ كَلْبٍ) .

(٤) التغميم : بفتح التاء المثناة وكسر الغين المعجمة وبعدها ميم : الكلب
ضاري . والطلق بفتح الطاء المهملة وسكون اللام وبعدها قاف : كلب الصيد .
والعواء بالعين المهملة وبالمد ، ويقال أيضاً بالقصر : الكلب يعوى كثيراً .
للوزير أبي الوليد إسماعيل بن حجاج الأعمى الأشبيلي في فتى عضه كلب في خذه :
وأغيد وضاح المباسم بامم إذا قام الأرواح ناظره قمر
تعمد كلب عض وجنته التي هي الورد إيناعا وأبقى بها أثر
فقلت لشهب الأفق كيف صماتكم وقد أثر العواء في صفحة القمر

هكذا رواها صاحب « نفع الطيب » في موضع من كتابه ، منسوبة للوزير
لذكور ، وأعادها في موضع آخر منسوبة لأبي القاسم بن هشام ، وروى المحاسن
دل المباسم ، والأسياف بدل الأرواح . والله أعلم .

والصَّمَات بالضم والصَّمَت والصُّمُوت : السكوت ، يشير بذلك إلى قولهم لا يضر القمر نبح الكلاب ، وأصل المثل « لا يضر السحاب نبح الكلاب ، لأن كلاب البادية تتأذى بالمطر لمبيتها أبداً تحت السماء ، فإذا أبصرت غيم نبحته ، لأنها قد عرفت ما تلقى من مثله . وتنبح أيضاً القمر ، لأنه إذا طلع من المشرق يكون كقطعة غيم ، ومنه قول بعضهم :

يا جابر بن عدي أنت مع زفرٍ كالكلب ينبح من بُعدٍ على القمر
(٥) البصير بفتح الباء الموحدة ، وكسر الصاد المهملة ، وبعدها ياء ساكنة وراء مهملة ، لم يذكره القاموس ، وأنشد صاحب اللسان لتوبة :

وأشرفُ بالقُورِ اليفاعِ لعلني أرى نَارَ كَيْلِي أَوْ يَرَانِي بَصِيرُهَا
ثم قال نقلاً عن ابن سيده : يعنى كلبها ، لأن الكلب من أحد العيون بصراً . انتهى .

قلت : وقد جاء في أمثالهم « أبصر من كلب » . وقول الناظم : « وفيه لغز قاله خبير » يريد بذلك قول الحريري في المقامة الثانية والثلاثين في فتاوى فقيه العرب « قال : أَيْسْتَبَاحُ ماءِ الضرير ؟ قال : نعم ، وَيُجْتَنَّبُ ماءُ البصير » فالمتبادر أن الضرير هو الأعمى وهو لا يستباح ماؤه الذي يملكه بدون علمه ، ومراد الشيخ به : حرف الوادي ، وكذلك المتبادر في البصير أنه ضد الأعمى ، وماؤه إذا أخذ للوضوء باطلاعه لا يجتنب ، وإنما أراد به الكلب . هكذا فسر الحريري نفسه في المقامة .

(٦) هكذا رواية البيت في نسختين من الأصل ، ولم يظهر لي وجه تسمية العرب للكلب في نفيهم بداعي الضمير أو داعي الضميرة كما يفهم من سياقه ، فغلل الكلام محرف ، وقد دخل البيت التسذيل ، وهو من علل الزيادة ، ودخوله في الرجز مغتفر المولدين .

(٧) قوله : داعي الكرم ، إنما سموه بذلك على ما يظهر ، لأن نباح الكلب يبشرهم بقدوم الضيف ، ويرشده إلى منزلهم ، فيكون سبباً للكرم وداعياً إليه . وقد كان الرجل من العرب إذا ضل وتخير في الليل ، فلم يدر أين البيوت ، أخرج صوته على مثل النباح ، فتسمعه الكلاب وتظنه كلباً ، فتنبح ، فيستدل بنباحها ويهتدى إلى المكان . وهو الذي تسميه العرب بالمستذبح . وأنشد أبو علي القالي في أماليه :

ومُبدٍ لى الشَّحْنَاءِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ دعوتَ وقد طال السرى فدعاني
يعنى كلباً ، ويريد نبحت له فنبح فاهتديت به ؛ فكأنه دعاني بنباحه .
وأنشد أبو علي أيضاً :

وَمُسْتَنْبِحِ بَاتِ الصَّدَى يَسْتَنْبِهُ فَتَاهَ وَجُوزُ اللَّيْلِ مَضَارِبَ الْكِسْرِ
رَفَعَتْ لَهُ نَارًا ثَقُوبًا زَادَهَا تُلَيِّحُ إِلَى السَّارَى هَلُمَّ إِلَى قِدْرِي
فَلَمَّا أَتَى وَالْبُؤْسَ رَادِفَ رَحْلِهِ تَلْقَيْتُهُ مِنِّي بَوَجْهِ امْرِئٍ بَشَرٍ
فَقُلْتُ لَهُ أَهْلٌ بِأَهْلٍ فَلَمْ يَجْزُ بَكَ اللَّيْلُ إِلَّا لِلْجَمِيلِ مِنَ الْأَمْرِ
وَكَادَتْ تَطِيرُ الشَّوْلُ عِرْفَانِ صَوْتِهِ وَلَمْ تُمْسِ إِلَّا وَهِيَ بِخَائِفَةِ الْعَقْرِ
انتهى . وقد اتفق أكثر علماء الأدب ، كابن رشيق وأضرابه ، على أن أهجى

بيت قالته العرب ، قول الأخطل في بني يربوع قوم جرير :

قوم إذا استنبح الأضيافُ كلبهم قالوا لأُمَّهم بولى على النار
وقال آخر يوصي بالكلب ، وأنشدهما الجرجاني في كنياته ، وقال ابن

المرزبان : إنهما لأعرابي قالملا لأكبرو ولده في كلبه :

أوصيك خيراً به فإنَّ له خلائقاً لا أزال أحمدها

يدل ضيفي على في غسق الليل إذا النار نام موقدها

وفي معنى استنبح أيضاً : كَلَبَ الرجلُ يَكْلِبُ من باب ضرب ، واستكلب ،
أنشد ابن سيده على الأول :

وداعٍ دعا بعد ما أقفرت — عليه البلاد ولم يكَلِبِ
وأنشد صاحب اللسان على الثاني :

ونبح الكلاب لمُسْتَكَلِبِ انتهى .

قلت : وكما يكون الكلب سبباً لإيصال الخير وتشديد الذكر ، فقد يكون أيضاً
سبباً للشر ، كما جنت على أهلها بَرَأَقِشُ ، وهي كلبة كانت لقوم من العرب ،
فأغبر عليهم ، فهربوا وهي معهم ، فاستدل العدو عليهم بنباحها ، فهجموا عليهم
واضطلموهم ، فقالوا (على أهلها تجني بَرَأَقِشُ) هكذا رواه الميداني في مجمع الأمثال ،
ورواه ابن سيده في المختص ، والجاحظ في كتاب الحيوان : (على أهلها دلت بَرَأَقِشُ) .
على أن نباح الكلب على الضيف وإن جعلوه من دواعي الكرم ، لما سبق
ذكره ؛ فقد رأيناهم يعدونه في نفسه من خصاله المذمومة ، لأنه لا ينبح على القادم
إلا كراهة منه في الغريب . ومن أحسن ما يروى في هذا الصدد نادرة أبي عبد الله
محمد بن مرزوق عالم المغرب مع أهل تونس لما ورد عليهم وسألوه قراءة درس في
التفسير بحضرة السلطان ، فأجابهم إلى ذلك ، وعينوا له محل البدء ، فطالع فيه ،
فلما حضروا قرأ القارئ غير ذلك ، وهو قوله تعالى : « فثله كمثل الكلب .. الآية »
وأرادوا بذلك إغحام الشيخ والتعريض به ، فوجم هنية ثم تفجر بينابيع العلم ، إلى
أن أجرى ذكر ما في الكلب من الخصال الحمودة ، وساقها أحسن مساق ، وأنشد
عليها الشواهد ، وجلب الحكايات ، حتى عدَّ من ذلك جملة ؛ ثم قال في آخرها :
فهذا ما حضر من محمود أفعال الكلب وخصاله ، غير أن فيه خصلة ذميمة ، وهي
إنكاره للضيف . انتهى .

وعندى أن ذمهم له بإنكاره الضيف لم يقصدوا به إلا معنى من المعانى الشعرية ،
إلا فأى فائدة من الكلب أعظم من حراسته أهله ، ودفعه عنهم ؟
(٨) التَّمَنُّمُ بفتح التاءين المثلثتين وسكون الميم الأولى : كلب الصيد .
الكالب ليس اسماً للكلب ، بل هو والكلب كأمير : جماعة الكلاب ، وفي
السان : الكليب كالعبيد ، جمع عزيز . وأنشد في وصف مفازة :

كَأَنَّ تَجَاوُبَ أَصْدَائِهَا مُكَاءَ الْمَكَلِّبِ يَدْعُو الْكَلِيبَا
والـمـكـلـب بكسر اللام المشددة : معلم كلاب الصيد ، ومكأؤه : صفيده . وقال
نارح القاموس نقلاً عن شيخه : إنهم اختلفوا فى الكليب هل هو جمع أو اسم
جمع ، وصححوا أنه إذا ذكر كان اسم جمع كالحجيج ، وإذا أنث كان جمعاً
كالعبيد . انتهى .

وهيئع كدرهم ؛ أى بكسر الهاء وسكون الباء الموحدة وفتح اللام وبعدها
بين مهملة : الكلب السَلُوقى ، واسم كلب بعينه . ومُنْذِرٌ كأنه من إنذار أهله
لطارق . وأهُوج لم يذكره ، وذكره الجاحظ على أنه الكلب فى بيت أنشده
: كتاب الحيوان . والهِجْرَج بكسر الهاء وسكون الجيم وفتح الراء وبعدها عين
مهملة : الكلب السَلُوقى الخفيف .

(٩) كَسَيْبٌ مصغراً : اسم كلب ، كافى المخصص ، وفى اللسان : كَسَيْبٌ من
سواء الكلاب ، ومراده من الأعلام التى تسمى بها الكلاب ؛ كما وضحه الناظم فى
لبيت . وقد خصوه بذكور الكلاب كما خصوا كَسَابٍ وكَسَبَةً بإناثها . وسيأتى
ول الناظم فيهما ، وإنما كانوا يسمون كلابهم بذلك تفاؤلاً بالكسب والاكتساب .
(١٠) الْقَلِطَى بفتح القاف واللام . وكسر الطاء المهملة وبعدها ياء مشددة ،
الْقَلَاط كغراب ، والقِيلِيط بكسر القاف واللام ؛ كل ذلك القصير المجتمع من

الناس والسنانير والكلاب ، وقد جاء به أبو الشمقمق في قوله من أبيات :
جِئْتُهُ زَائِرًا فَأَذِنِي مَكَانِي وَتَلَقَّى بِمَرْحَبٍ وَتَحِيَّةٍ
لَا كَمِثْلِ الْأَصَمِّ حَارِثَةُ اللَّؤْلُؤِ مِثْلُهُ السَّكَلِيَّةُ الْقَلْطِيَّةُ
وفي حياة الحيوان أن القلطى نوع من الكلاب السلوقية صغير الجرم
قصير القوائم ، ويقال له : الصَّيْنِي .
والسلوق بفتح السين المهملة ، نسبة إلى سلوق ، وهي أرض أو قرية باليمن ،
وذهب الجوهري إلى أنها مدينة بالشام ، قال القطامي :
مَعَهُمْ ضَوَاكِرٌ مِنْ سَلُوقَ كَانَتْهَا حُصْنٌ تَجُولُ تُجَرَّرُ الْأَرْسَانَا
وفي معجم ياقوت قنلا عن ابن الخائف ، وهو يذكّر اليمن : سلوق كانت
مدينة عظيمة بأرض الجديد ، واسم بقعتها اليوم حسل الزينة . إلى أن قال : وإليها
كانت العرب تنسب الدروع السلوقية والكلاب السلوقية . انتهى . وقيل : سلوق
بلد بطرف أرمينية يعرف ببلد اللان ، وتنسب إليه الكلاب . وقيل : بل هي
منسوبة إلى سلقية بفتح السين فسكون وياء مفتوحة مخففة : بلد بالروم ، فلما نسبوا
إليه قالوا : سلوقي ، فغيروا النسب . وجاء في اللسان : سلوق أرض باليمن ، وفي
التهذيب : قرية باليمن ، وهي بالرومية : سلقية . انتهى . فسلقية علي هذا في اللغة
الرومية هي سلوق التي باليمن . والله أعلم . أما علماء الحيوان من الأفرنج اليوم ،
فيقسمون السلوق إلى عدة أنواع ، لكل صنف نوع ؛ واسمه في لغة الفرنسيين إقريه
(Lévrier) ويذهبون إلى أن أنواعه تفرعت من جنس أصلي كان في سهول غربي
آسيا ، ولهم في تعديدها كلام كثير ليس هذا موضعه . ورأيت في المعجم الكبير
للأروسان أن السلوق (Sloughi) الحقيقي يوجد في الأقاليم الهندية الغربية ، وهو
أصهب اللون .

والنَّصِيبِي بفتح النون وكسر الصاد المهملة ، نسبة إلى نصيبين ، ويقال
النسبة إليها : نصيبيني أيضاً . وهي ثلاثة مواضع : مدينة من بلاد الجزيرة ،
ية من قرى حلب ، ومدينة بشاطئ الفرات ، تعرف بنصيبين الروم . ولم
أحداً نص على اشتهاً واحدة منها بنوع من الكلاب ينسب إليها ؛ فإما أن
رن الناظم رآه في كتاب لم نطلع عليه ، أو يكون أراد الصَّيْنِي ، فخرِّفه الناسخ ،
لي هذا يكون الشطر (كذلك الصَّيْنِي بذاك أشبهه) أو نحو ذلك . وقد سر بك
، الدميري في « حياة الحيوان » أن القلطي يقال له : الصيني . فقول الناظم (بذاك
به) بعد ذكره القلطي ، يرجح أنه أراد الصيني . على أن كثيراً من أئمة اللغة لم
كروا الصيني إلا في معرض ردّه وتغليط قائله ؛ فقالوا : كَلْبٌ زَيْئِيٌّ : قصيرٌ ، ولا
، صيني . ورأيت الجاحظ جمع بينهما في كتاب الحيوان فقال : (والكلب الزئئي
صيني يُسرج على رأسه ساعات كثيرة من الليل ، فلا يتحرك . وقد كان في
، ضبة كلب زئني صيني يُسرج على رأسه ، فلا ينبض فيه نابض ، ويدعونه
مه ، ويُرْمى إليه ببضعة اللحم ، والمسرجة على رأسه ، فلا يميل ولا يتحرك ، حتى
ون القوم هم الذين يأخذون المصباح من رأسه ؛ فإذا أزيل عن رأسه وثب على
حم فأكله . دُرْبٌ فَدَرِبٌ ، وَتَقَفَ فَتَقَفَ ، وَأَدَّبَ فَتَقَبَّلَ) . وعلى كل حال
صيني ذكره ، وإن خطأ بعضهم قائله ، بخلاف النَّصِيبِي ، فإنا لم نر أحداً
كره فيما نعلم .

(١١) المستطير بالسين والطاء والراء المهملة جميعها : الكلاب الهائج : أي
طالب السَّفاد . وأراد الناظم بالعباب : كتاب العباب الزاخر في اللغة ، وهو كتاب
نير يقع في عشرين مجلداً للإمام حسن بن محمد الصَّاغَانِي أو الصَّغَانِي المتوفى سنة
٦٥ ، بلغ فيه إلى الميم ، ووقف في مادة بكم ، ومات قبل إتمامه ؛ ولهذا قيل :

إِنَّ الصَّغَانِيَّ الَّذِي حَازَ الْعُلُومَ وَالْحِكْمَ
كَانَ قُصَّارِيَّ أَمْرِهِ أَنْ أَنْتَهَى إِلَى بَيْكَمِ

(١٢) الدَّرْصُ بِتَثْلِيثِ الدَّالِ الْمَهْمَلَةِ وَسُكُونِ الرَّاءِ وَبَعْدَهَا صَادٌ مَهْمَلَةٌ : وَلَدَ الْكَلْبِ ، وَكَذَلِكَ الْجِرُّوُ مَثَلَتْ الْأَوَّلَ .

(١٣) السَّمْعُ بِكَسْرِ السَّيْنِ الْمَهْمَلَةِ وَسُكُونِ الْمِيمِ وَبَعْدَهَا عَيْنٌ مَهْمَلَةٌ ، أَوْرَدَهُ النَّاطِمُ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَسْمَاءِ وَلَدِ الْكَلْبِ ، نَقْلًا عَنِ الصُّوْلِيِّ . وَالَّذِي فِي مَادَةِ (س م ع) مِنْ كُتُبِ اللُّغَةِ أَنَّهُ سَبْعٌ مَرَكَّبٌ ، وَهُوَ وَلَدُ الذَّنْبِ مِنَ الضَّبْعِ ، وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ : (أَسْمَعُ مِنْ سَمْعٍ) وَمِنْ السَّمْعِ : الْأَزَلُّ . قَالَ :

تَرَاهُ حَدِيدَ الطَّرْفِ أَبْلَجَ وَاضِحًا أَغْرَ طَوِيلَ الْبَاعِ أَسْمَعُ مِنْ سَمْعٍ
نَمِ رَأَيْتَ فِي مَادَةِ (خ ي ه ف ع) مِنَ اللِّسَانِ أَنَّهُ وَلَدُ الْكَلْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ
نَقْلًا عَنِ الْأَزْهَرِيِّ ، وَرَأَيْتَ أَيْضًا فِي جُزْءِ النَّاطِمِ سَمَاءَ « التَّهْدِيبِ فِي أَسْمَاءِ الذِّيْبِ »
أَنَّ السَّمْعَ بَيْنَ الذَّنْبِ وَالْكَلْبِ . وَأَبُو خَالِدٍ : مِنْ كُنَى الْكَلْبِ ، ذَكَرَهُ النَّاطِمُ فِي الْمَزْهَرِ ، وَقَالَ أَبُو السَّعَادَاتِ الْمُبَارَكُ بْنُ الْأَثِيرِ فِي الْمَرْصَعِ : أَبُو خَالِدٍ هُوَ الْكَلْبُ ، مِنْ قَوْلِكَ : أَخْلَدَ الرَّجُلُ بِصَاحِبِهِ إِذَا لَزِمَهُ ، وَأَخْلَدَ بِالْمَكَانِ إِذَا أَقَامَ بِهِ . وَهُوَ كُنْفِيَّةُ الثَّعْلَبِ أَيْضًا . أَنْتَهَى .

قُلْتُ : وَلِلْكََلْبِ كُنَى أُخْرَى سَنَذْكُرُهَا فِيمَا اسْتَدْرَكَنَاهُ عَلَى النَّاطِمِ بَعْدَ تَمَامِ الشَّرْحِ .

(١٤ و ١٥) فِي نَسَخَتَيْنِ مِنَ الْأَصْلِ بِإِسْقَاطِ لَفْظَةِ (أَيْضًا) مِنْ عَجَزِ الْبَيْتِ ، فَيُصِيرُ الشَّطْرُ : (وَكَلْبَةٌ قِيلَ لَهَا كَسَابٌ) وَلَا يَدُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ مِنْ كَسْرِ بَاءِ كَسَابٍ لِلْوِزْنِ ، وَهُوَ مَعَ هَذَا لَا يَلْتَمُّ مَعَ الصَّدْرِ ؛ لِأَنَّ الْعُرُوضَ دَخَلَتْهَا إِحْدَى عِلَلِ الزِّيَادَةِ وَهِيَ التَّنْذِيلُ ، وَدَخُولُهُ فِي الرَّجْزِ مُغْتَفَرٌ لِلْمَوْلِدِينَ . وَالْبَيْتُ مُصَرَّعٌ ، وَلَا يَدُ فِي

التصريح من مطابقة الضرب للعروض في الوزن والقافية ؛ فلماذا اضطررنا لزيادة (أيضا) مع التنبيه عليها في الشرح لَيْلَتُمْ الشطران في الوزن . ويمكن أن يقال بإسقاطها :

وَنَقَلُوا الزُّهَادَ لِلْكِلَابِ وَكَلْبَةً قِيلَ لَهَا كَسَابُ

إلا أن احتمال سقوط لفظه من قلم الناسخ سهوا أقرب من تغيير (الزاهدون) بالزُّهَاد . أما وصف الكلب بالزهد ، فقد وقفت في مجموع على رسالة في خصال الكلب المحمود ، تنسب للحسن البصري ، جاء فيها مانصه : (الخصلة الرابعة ، أنه إذا مات لا يكون له ميراث ، وذلك من أخلاق الزاهدين) وكنت في ريب من أمر هذه الرسالة ، حتى رأيتها في نفح الطيب مسوقة في ترجمة أبي عبد الله الراعي الغرناطي ، وذكر أنه أوردها في باب العلم من شرحه على الألفية ، منسوبة للحسن البصري . والله أعلم .

ومن أمثالهم في ذلك : (أَشْكُرُ من كلب) إلا أن الأكثرين على وصفه بالحرص والشره ، ومن أمثالهم فيه (أَخْرَصُ من كلب على جيفة) ومن كلب على عَرَقٍ ، والعَرَقُ بالفتح : العظم عليه اللحم ، أو الذي أَكَلَ لحمه . وقالوا أيضا (الْأُمُّ من كلب على عرق) و(أَنْهَمُ من كلب) . وكَسَابُ كَقَطَامٍ مبنيا على الكسر : الذئب ، كما في القاموس ، وفي الصحاح والمخصص أنه اسم كلبة ، وهو الذي أراده الناظم . وقد مر بك بيت لبيد الذي ذكر فيه كلبة تسمى بهذا الاسم . ومثله كَسَبَةٌ بالفتح ، قال الأعشى :

وَلَزَّ كَسَبَةً أُخْرَى فَرَعُهَا فَهَقَّ

(١٦) العَوْنُ بفتح العين المهملة وسكون الواو وفتح اللام وبعدها قاف : الكلبة الحريصة . والمعاوية الكلبة المستحرة تعوى إلى الكلاب . ومن طريف

ما يحكى أن جارية بن قدامة دخل على أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ، فقال له : ما كان أهوتك على أهلك إذ سموك جارية ! فقال : وما كان أهوتك على أهلك إذ سموك معاوية ! وهى الأنثى من الكلاب . ويروى أن شريك بن الأعور دخل عليه وكان دميما ، فقال له معاوية : إنك لدميم والجمل خير من الدميم ، وإنك لشريك وما لله شريك ، وإن أباك لأعور والصحيح خير من الأعور ، فكيف سدت قومك ؟ فقال له : إنك معاوية ، وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب ، وإنك لابن صخر والسهمل خير من الصخر ، وإنك لابن حرب والسلم خير من الحرب ، وإنك لابن أمية ، وما أمية إلا أمة صُفرت ، فكيف صرت أمير المؤمنين ؟ !

ويشبه هذا ما رواه أبو هلال فى الصناعتين : أن رجلا من قريش قال لخالد بن صفوان : ما اسمك ؟ قال خالد بن صفوان بن الأهم ، فقال الرجل : إن اسمك الكذب ، ما خلد أحد . وإن أباك لصفوان ، وهو حجر . وإن جدك لأهم ، والصحيح خير من الأهم . قال خالد : من أى قريش أنت ؟ قال : من بنى عبد الدار . قال : فثلك يشتم تميما فى عزها وحسبها ، وقد هشمتمك هاشم ، وأمتك أمية ، وجمعت بك جمع ، وخزمتك مخزوم ، وأقصتك قصى ، فجعلتك عبد دارها ، وموضع شنارها ؛ تفتح لهم الأبواب إذا دخلوا ، وتغلقها إذا خرجوا انتهى .

واللغة بفتح اللام وسكون العين المهملة ، واللعاة بفتححتين : الكلبة من غير تخصيص بشره وحرص ، وقال الجاحظ فى كتاب « الحيوان » : يقال أحرص من لغة ، وهى الكلبة . وفى اللسان ومجمع الأمثال للميدانى : (أجوع من لغة) . (١٧) العُسْبُورَةُ بضم العين وسكون السين المهملتين وضم الباء الموحدة

وبعدها واو ساكنة وراء وهاء : ولد الكلب من الذئبة ، ويقال له : العسبور أيضاً ، ولهذا قال الناظم (وإن تزل ها لا تلم) أى إن نطقت به بدون هاء لا يلومك إنسان ، لأنه مسموع .

(١٨) الخَيْهَفَعَى بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المثناة التحتية ، وفتح الهاء والفاء والعين المهملة مقصوراً : ولد الكلب من الذئبة . وقد سمع أيضاً بالمد . وفي اللسان : حكى الأزهري عن أبي تراب قال : سمعت أعرابياً من بني تميم يكنى أبا الخَيْهَفَعَى ، وسألته عن تفسير كنيته ، فقال : يقال إذا وقع الذئب على الكلبة جاءت بالسَّمْع ، وإذا وقع الكلب على الذئبة جاءت بالخَيْهَفَعَى . قال : وليس هذا على أبنية أسمائهم مع اجتماع ثلاثة أحرف من حروف الحلق ، وقال عن هذا الحرف وعما قبله في باب رباعى العين في كتابه : وهذه حروف لا أعرفها ، ولم أجد لها أصلاً في كتب الثقات الذين أخذوا عن العرب العاربة ما أودعوا كتبهم ، ولم أذكرها وأنا أحقها ، ولكني ذكرتها استنداراً لها وتعجباً منها ، ولا أدري ما صحتها . انتهى .

(١٩) الدَّيْسَم بفتح الدال المهملة وسكون الياء المثناة التحتية وفتح السين المهملة وبعدها ميم : ولد الثعلب من الكلبة ، أو ولد الذئب منها . هكذا في القاموس واللسان ، وقال الجوهري في الصحاح : الدَّيْسَم : ولد الدَّب ، قال : وقلت لأبي الفوثن : يقال إنه ولد الذئب من الكلبة ، فقال : ما هو إلا ولد الدَّب . انتهى . وقال الجاحظ : إنه ولد الذئب من الكلبة ، وهو أغبر اللون ، وغبرته ممتزجة بسواد .

(٢٠) الهَرَائِكَة بفتح الهاء والراء وكسر الكاف وفتح اللام : كلاب الماء ، وقول ابن أحرر الباهلي يصف دُرَّة :

رَأَى مِنْ دُونِهَا الْغَوَاصُ هَوْلًا هَرَاكَةً وَحِيَتَانًا وَنُونًا
فسره الأزهري في التهذيب بكلام الماء . وقال الصاغاني في العباب : هي
جمال الماء ، وقيل : هي ضخام السمك .

(٢١) الْقُنْدُسُ كَقُنْفُذٍ ، أى بضم القاف وسكون القون وضم الدال المهملة
وبعدها سين مهملة : كلب الماء . أهمله القاموس واللسان والمخصص ، وذكره شارح
القاموس والدميري في حياة الحيوان ، ونسبوا تفسيره بذلك لابن دحية . كما ذكره
الناظم ، وعبارته تفيد أنه أهمل ونسى .

(٢٢) الْقَضَاعَةُ بضم القاف وفتح الضاد المعجمة والعين المهملة : اسم كلبة الماء .
(٢٣) شرع الناظم في هذا البيت وما بعده يعدد أسماء ابن آوى ، تبعاً لمن
عده نوعاً من الكلاب ، فذكر من أسمائه : الدَّالُّ بفتح الدال المهملة وسكون الهمزة
وبعدها لام . والدَّالُّ بضم فكسر ، وقد نصوا على أن لا نظير لها إلا : رُئِم .
والشَّوْلُ بضمين . والدَّالُّ لأن محركة ، ويقال فيه الدَّالُّ لأن بفتح الدال المعجمة ،
والدَّوْلَانُ بضمها ، إلا أن الهمزة فيهما ساكنة . والعِلْوُش بكسر العين المهملة
وافتح اللام المشددة ، وسكون الواو وبعدها ضاد معجمة . والنَّوْفَلُ بفتح النون
وسكون الواو وفتح الفاء وبعدها لام . واللَّغْوُش بفتح اللام وسكون العين
المهملة وفتح الواو ، وبعدها ضاد معجمة . والشَّرْحُوب بضم السين المهملة وسكون
الراء وضم الحاء المهملة وبعدها واو ساكنة وباء موحدة . والوَعَّ بفتح الواو
وبعدها عين مهملة مشددة . والعِلْوُش بكسر العين المهملة وفتح اللام المشددة
وبعدها واو ساكنة وشين معجمة . والوَعَّوَع بفتح الواوين وإسكان العين
الأولى المهملة . والشَّعْبَرُ بفتح الشين وإسكان العين المعجمتين ، وفتح الباء الموحدة
وبعدها راء ؛ وبالزاي المعجمة تصحيف . والوَأَوَّاء بفتح الواوين وسكون الهمزة
الأولى . وكلها من أسماء ابن آوى .

هذا ما أردنا بيانه، ويتبين منه ثلاثة أمور :

الأول : أن الناظم — رحمه الله — مع استيفائه لكثير من أسماء الكلاب قد أدرج فيها بعض صفات يشترك فيها الكلب مع غيره ، ولم نجد مع كثرة البحث نصا على أنها غلبت عليه ، حتى يمكن عدها في أسمائه ؛ كذكره الزاهد والمُنذر ، وداعى الكرم ، ومشيد الذكر ونحوها . فالظاهر أنه تسامح في إيرادها ، أو يكون وقف فيها على ما لم تقف عليه . وفوق كل ذى علم عليم .

الأمر الثانى : إirاده أربعة أعلام مشهورة للكلاب نص منها على ثلاثة ، وهى : كُسَيْبٌ وَكَسَابٌ وَكَسْبَةٌ ، وسكت عن واحد وهو سُحَايمٌ ، فدل بسكوته على عده من أسماء الأجناس ، وكلاهما لا يبرنه من مَعَرَّةِ المَعَرَّى ؛ لأن جعل سُحَامِ اسم جنس وَهَمَّ ظاهر . وإيراد ثلاثة أعلام خارج عن مقصود أبى العلاء . إلا أن يكون أوردتها زيادة منه فى الفائدة . وهو أيضاً تقصير ، لاقتصاره عليها ، مع وجود ما هو أشهر منها .

الأمر الثالث : ما فاته من أسمائه ، وهو ما نريد استدراكه هنا ، وبعضه من أشداء الشرح . فمنها :

« الدَّرْوَاسُ » بكسر أوله ، وهو الغليظ العنق من الكلاب ، وقيل الكبير الرأس منها ، وقول بعضهم :

بِتَنَّا وَبَاتَ سَقِيطُ الطَّلِّ يَضُرُّ بِنَا عِنْدَ النَّدُولِ قِرَانَا نَبْحُ دِرْوَاسٍ

قيل : إن أولى ما يفسر به : السكلب ، لقوله : قِرَانَا نَبْحُ دِرْوَاسٍ ؛ لأن النبح إنما هو فى الأصل للكلاب . وقوله : النَّدُولُ ، يجوز أنه عنى به امرأة أو رجلا من النَّدَل وهو شبيهه الوسخ ، أو عنى به كَلْبَةٌ . ورواه الجاحظ فى كتاب الحيوان : (بين

البيوت) . وِدِرْوَاسٌ أيضاً : اسم كلب بعينه . والأظهر أن البيت قيل فيه ، أو في كلب آخر يسمى بهذا الاسم .
و « الأَرَشَم » قالوا سمي بذلك لتشمة الطعام وحرصه . وقد يطلق أيضاً على الذئب .

و « العِفْرَاسُ » بالكسر ، وهو الشديد العنق الغليظة من الكلاب ، ومثله « العِفْرَنَسُ » . و « القَلَّاطُ » بالضم و « القِيلِيطُ » بالكسر كلاهما القصير المجتمع ، ويقال فيهما : القَلَطِي ، وقد ذكره الناظم .

« والأَغْضَفُ » ومثله « الغاضِفُ » وهو المسترخي الأذن من الكلاب ، وفرق بينهما ابن الأعرابي فقال : الغاضف من الكلاب المتكسر أعلى أذنه إلى مُقَدِّمِهِ ، والأَغْضَفُ إلى خلفه ، كذا في اللسان . ثم قال : والغَضْفُ : كلاب الصيد من ذلك صفة غالبية . انتهى : وقول ليبيد :

حَتَّى إِذَا يَتَسَّرَ الرُّمَاءُ وَأَرْسَلُوا غُضْفًا دَوَاجِنَ قَافِلًا أَغْصَامُهَا
أَرَادَ كِلَابَ الصَّيْدِ .

و « ابنُ بَقِيع » بالتصغير ذكره ابن الأثير في المَرَصَع . و « ابنُ وَارِع » وابن زَارِع وابن ذَارِع وابن ذِرَاع وابن بَوَزَع وابن عَوَلَق «
فهذه خمسة عشر اسماً للكلب فانت الناظم .
وفاته من أسماء أولاده :

« الضَّرْوُ » بالكسر ، وهو الضاري من أولاد الكلاب . ومثله « الضَّرِي » .
و « الأَسْبُورُ » وهو ولد الكلب من الضَّبُع ، كما في حياة الحيوان وجمع الأمثال ، عند تفسير قولهم : « أَسْمَعُ مِنْ سَمْعٍ » .
وفاته من أسماء ابن آوى :

« البُرْعُل » بالضم ، وهو ولد الوَبْر من ابن آوى .
وفاته من أسماء الكلبة :

« الأَمَاء » بفتحتين ، وهى الكلبة الحريصة ، أو الكلبة مطلقاً من غير تخصيص .
« والبَوَزْعُ » وهى الكلبة الحريصة ، كما فى الرصع .

وفاته من كُنى الكلب : « أبو حاتم » . و « أبو ذراع » . و « أبو قيس »
و « أبو عامر » لأنه يعمر بيت صاحبه بحراسته إياه . و « أبو عطف » بكسر العين
والتخفيف ، لأنه يعطف على أصحابه ، قال العجاج يصف صائداً :

ذَا أَكْلَبٍ كَالْأَشْهُمِ الْعِطَافِ يُشْلِي عِطَافًا وَأَبَا عِطَافٍ

كذا فى الرصع . ورواية الديوان : ذَا أَكْلَبٍ نَوَاهِزٍ خِفَافٍ .

ومن أمثالهم فى هذا المعنى : « آلفُ مِنْ كَلْبٍ » .

ولهم فى وفاء الكلب وعطفه على صاحبه أقوال ونوادير كثيرة ، وربما فضلوهم
فى ذلك على الصاحب والخليل . وقد جمع منها ابن المرزبان جملة صالحة فى كتاب
سماه : « فضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب » وقفت عليه ونقلت منه فى
هذه الرسالة . ومن وقف على ما كتبه الجاحظ عن الكلب فى كتاب « الحيوان »
رأى عجبا عجبا . ويذكرون من نوادر وفاته أن الربيع بن بدر كان له كلب قد
رباه ، فلما مات جعل الكلب يتضرب على قبره حتى مات . ولما مات عامر بن
غبرة لزمت كلابه قبره حتى ماتت عنده ، وتفرق عنه الأهل والأقارب . وقال
الشعبي : خير خصلة فى الكلب أنه لا ينافق فى محبته . وأنشد القالى فى
أماليه لأعرابي :

كَلَابُ النَّاسِ إِنْ فَكَّرْتَ فِيهِمْ أَضُرُّ عَلَيْكَ مِنْ كَلْبِ الْكَلَابِ

لأن الكلب لا يؤذى صديقا وأن صديق هذا فى عذاب .

ويأتي حين يأتي في ثياب وقد حُزمت على رجل مُصَاب
فأخزي الله أثواباً عليه وأخزي الله ما تحت الثياب
ومن أغرب ما رأيته ما حكاه الجرجاني في كنيائته عن محمد بن حرب قال :
رأيت العتّابيَّ ينادم كلباً ، يشرب كأساً ويولغه كأساً . فكلّمته في ذلك ، فقال :
إنه يكف عني أذاه وأذى سواه ، ويشكر قليلي ، ويحفظ مبيتى ومقبلي ، فهو من
بين الحيوان خليلي . قال ابن حرب : فتمنيت أن أكون كلباً لأحوز هذا
المنفعة . انتهى . وقد ذكر ابن المزيان هذه القصة لإبراهيم الموصلي مع الفضل
ابن يحيى ببعض اختلاف . والله أعلم .

ولم يذكر الناظم من كُنى الأنثى شيئاً وهي :
« أم عولق » و « أم ذراع » و « أم الهمّرش » بتشديد الميم المفتوحة كما في
المرصع : وفي القاموس واللسان : الهمّرش اسم كلبة . و « أم يعفور » قال في
المرصع : هي الكلبة ، وأنشد :

يا أم يعفور سَقَاكِ العهدُ لا زالَ من صَيْدِ عَلَيكِ لِبْدُ

يقول : لا زال عليك مما تصيدين لبداً من وَبَر الأرانب وغيرها . واليعفور في
الأصل : ولد الظبية وولد البقرة الوحشية . و « أم العاويات » والعاويات أولادها .
وكذلك لم يذكر من كُنى ابن آوى شيئاً ، وهي :

« أبو ذؤيب » . و « أبو كعب » . و « أبو معاوية » . و « أبو أيوب » .
و « أبو وائل » . والله أعلم .

أما أعلام الكلاب المشهورة التي عنوا بذكرها فكثيرة منها :
سُحَيْمٌ ، وَطِحَالٌ ، وَأَسْكَدَرٌ ، وَوَاشِقٌ ، وَزُهَّانٌ ، وَمَيْلَعٌ ، وَبَرَّاقِشٌ ،
وَجَدْلَاءُ : كَلْبَاتُ . وَالْمُخْتَلِسُ ، وَغَلَابٌ ، وَالْقَنْيَصُ ، وَسَلْهَبٌ ، وَسِرْحَانٌ ،

الْمِغْنَاطِيسُ، هِيَ خَمْسَةُ أَكْلَبٍ كَانَتْ لِرَجُلٍ اسْمُهُ ذَرِيحٌ، وَآخِرُ اسْمِهِ أَبُو دُجَانَةَ،
صَيْدَانِ بِهَا الظُّبَاءُ .

وَقَرَّحَانُ : اسْمُ كَلْبٍ لَهُ قِصَّةٌ تَحَامَيْتَ عَنْ ذِكْرِهَا ، حَبَسَ سَيِّدُنَا عُمَانُ بْنُ
عَفَانَ بِسَبِيهَا ضَايِيَّ بْنَ الْحَارِثِ الْبُرْجُمِيِّ .

وَضُمُّرَانُ بِالضَّمِّ وَبِالْفَتْحِ ، وَرَوَى بِهِمَا فِي قَوْلِ النَّابِغَةِ :
فَهَابَ ضُمُرَانُ مِنْهُ حِينَ يُوزَعُهُ طَمَعُنُ الْمَعَارِكِ عِنْدَ الْمُجَجَّرِ الْقَجْدِ
هُوَ اسْمُ كَلْبٍ .

وَضَبَّارٌ بِتَشْدِيدِ الْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ ، الَّذِي قَالَ فِيهِ الْحَارِثُ بْنُ الْخَزْرَجِ الْخَفَاجِيُّ :
سَفَرْتُ فَقُلْتُ لَهَا هَجْرٌ فَتَبَرَّقَعَتْ فَذَكَرْتُ حِينَ تَبَرَّقَعَتْ ضَبَّارًا
وَتَزَيَّنَتْ لِتُرْوَعَنِي بِجَمَاهَا فَكَانَتْ كُتَيِّ إِخَارُ خَارًا
نَفَرَجْتُ أَغْثَرُ فِي قَوَادِمِ جُبِّي لَوْلَا الْحِيَاءُ أَطَرَتْهَا إِخْضَارًا
هُوَ اسْمُ كَلْبٍ لَهُ ، وَقَوْلُهُ : هَجْرٌ زَجْرٌ لِلْكَلْبِ . وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ الْهَاشِمِيِّ
كَلْبٌ صَيْدٌ يَسْمَى زُنْبُورًا ، وَفِيهِ يَقُولُ أَبُو نَوَاسٍ :

إِذَا الشَّيَاطِينُ رَأَتْ زُنْبُورًا قَدْ قُلِّدَ الْحَلَقَةَ وَالسُّيُورَا
مَنْ أَرْجُوزَةٌ يَقُولُ فِي آخِرِهَا :

فَأَمْتَعَ اللَّهُ بِهِ الْأَمِيرَا رَبِّي وَلَا زَالَ بِهِ مَسْرُورَا

وَمِنْ طَرَائِفِهِمْ مَا رَوَاهُ الرَّاعِبِيُّ فِي مُحَاضِرَاتِهِ لِأَبِي مُجَبَّنٍ ، فِي رَجُلٍ اسْمُهُ :
وَتَّابٌ وَاسْمُ كَلْبِهِ : عَمْرُو ، وَرَوَاهُمَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ لِابْنِ أَبِي عَتِيْقٍ ،
بِاخْتِلَافٍ فِي الرِّوَايَةِ .

وَلَوْ هِيَ لَهُ اللَّهُ مِنْ التَّوْفِيقِ أَسْبَابَا
اسْمِي نَفْسُهُ عَمْرُو وَاسْمِي الْكَلْبِ وَتَّابَا

قلت : تذكرت بهذين البيتين قصة ظالم ، لما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يريد الإسلام ، وكان معه كلب له اسمه : راشد ، فسأله عليه السلام عن اسمه واسم كلبه ، فلما أخبره ضحك عليه السلام ، وقال : اسمك راشد واسم كلبك ظالم . وفي رواية أنه كان يسمى غاوى بن ظالم ، فسماه عليه السلام راشد بن عبد الله . وسبب إسلامه أنه كان سادنا لصنم اسمه سواع ، فرأى يوماً ثعلباً يعدو عليه ببوله ، فكسره ، وقال فيه :

أَرَبُّ يَبُولِ الثُّعْلُبَانِ بِرَأْسِهِ لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثُّعَالِبُ

وفي القصة ، ورواية هذا البيت ونسبته لراشد ، اختلاف ليس هذا محل ذكره . وكان لميمونة أم المؤمنين رضي الله عنها كلب اسمه مِسْمَارٌ . قال صاحب القاموس : إنه مرض ، فقالت : وَارْتَحَمَتَا لِمِسْمَارٍ . وفي كتاب « فضل الكلاب على كثير من لبس الثياب » لابن العَرُزْبَان ، أنها رضي الله عنها كانت إذا خرجت خرجت به معها ؛ فليس يطعم أحد في القرب من رَحْلِهَا مع مِسْمَارٍ ، فإذا رجعت جعلته في بني جَدِيلَةَ ، وَأَنْفَقَتْ عَلَيْهِ ، فلما مات قيل لها : مات مِسْمَارٌ ، فبكّت . وقالت : فَجِئْتُ بِمِسْمَارٍ .

وفي هذا القدر كفاية فقد كدنا نخرج عن المقصود . ولولا خوف الإطالة لكُتِرَ أيضاً ما ورد من أمثالهم في الكلب ، وهي كثيرة تربو على خمسة وخمسين مثلاً ، على أن ما ذكرناه وإن طال فلا يخلو من فائدة ، وفي التنقُّلِ جَمَامُ الْأَنْفَسِ .

رَجْعٌ إِلَى أَبِي الْعَلَاءِ

وعلى الجملة فلا يختلف اثنان في علمه وفضله ، ووقوفه على دقائق العربية ،
لا عبرة بمن لحنه في قوله :

يَذِيبُ الرِّعْبُ مِنْهُ كُلَّ عَضْبٍ فَلَوْلَا الْغَمْدُ يَمْسِكُهُ لَسَالَا
بأن مذهب الجمهور وجوب حذف الخبر بعد لولا ، بناء على أنه لا يكون إلا
كونا مطلقا ، فإذا أريد السكون المقيد جعل مبتدأ ، فكان عليه أن يقول : فلولا
مسالك الغمد إياه لسال ، أى موجود ؛ وأما التركيب الذى أتى به فتركيب فاسد .
تتهى .

قلت : وهذا المخطئ هو المخطئ لاحتمال تقدير يمسكه جملة معترضة بين المبتدأ
والجواب والخبر محذوف ، أو تقدير يمسكه بدل اشتغال على أن الأصل أن يمسكه ،
ثم حذف أن وارتفع الفعل ، وعلى هذا فالخبر محذوف أيضا . والمعنى : فلولا الغمد
إمسكه موجود لسال . انتهى ملخصا من المعنى وحواشيه . هذا إذا خرجنا
البيت على مذهب الجمهور الذى تمسك به المعارض ، والمذهب الحق ما ذهب إليه
ابن مالك والزماني وابن السجري والشلوبين ؛ بأن الخبر إذا كان كونا مقيدا ،
ولم يدل عليه دليل ، وجب ذكره ، وإن دل عليه دليل جاز إثباته وحذفه . وعليه
فلا وجه للتخطئة في البيت ، فضلا عن ورود مثله في الكلام الموثوق به .

وأما ذكاؤه وسرعة فهمه وقوة حافظته ؛ فقد رووا فيها غرائب ، منها ما ينبو
العقل عن تصديقه . وقد صرح صاحب معاهد التنصيص بأن للناس في ذلك
حكايات مشهورة يضعونها ، وغالبها مستحيل . إلا أن اشتراط استيفاء أخباره
بقضى بذكر ما وقفنا عليه منها ، وعلى القارئ تمييز الغث من السمين .

فمن ذلك : ما نقل عن تلميذه التبريزي أنه كان قاعداً بين يديه في مسجد بمصر

النعمان يقرأ عليه شيئاً من تصانيفه . قال : وكنت أقمت عدة سنين لم أر أحداً من أهل بلدى ، فدخل المسجد بعض جيراننا للصلاة ، فرأيتُه وعرفته ، فتغيرت من الفرح ، فقال لى أبو العلاء : أى شىء أصابك ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فقال : قم وكله ، فقلت : حتى أتم النسق ، فقال : قم وأنا أنتظرك ، فقامت وكلته بلسان الأذريّة شيئاً كثيراً ، إلى أن سألت عن كل ما بدا لى . فلما رجعت إليه قال لى : أى لسان هذا ؟ قلت : هذا لسان أهل أذربيجان . فقال لى : ما عرفت اللسان ولا فهمته ، غير أنى حفظت ما قلتما ، ثم أعاد على اللفظ بعينه من غير أن ينقص منه أوزيد ، فتعجبت غاية العجب ، كيف يحفظ ما لم يفهمه .

ومنه : مارواه بعض طلبته ، أن جاراً له أعجمياً غاب عن المعرة ، وحضر رجل من بلده يبحث عنه ، فوجده غائباً ، ولم يمكنه المقام ، فأشار عليه أبو العلاء أن يذكر حاجته ، فجعل الرجل يتكلم بالفارسية وأبو العلاء مصغراً إليه ، ولم يكن يعرفها ، إلى أن فرغ من كلامه ، ومضى الرجل . وقدم جاره الغائب ، فجعل أبو العلاء يردد عليه ما سمعه بلفظه ، والرجل يبكى ويستغيث ويلطم ، إلى أن فرغ من الحديث . وسئل عن حاله ، فأخبر أنه أخبر بموت أبيه وإخوته وجماعة من أهله . وهذه الحكاية حكها الوطواط فى « الغرر والعُرر » على غير هذا الوجه . قال : ومن عجيب حكاياته أن أبا زكريا التبريزى كان يقرأ عليه فأتاه رسول من عند أهله من تبريز ، فجاء حَلَقَة أبى العلاء ، فسأل عنه ، فأخبر أنه غائب فى بعض شأنه . فقال له أبو العلاء : ما تريد به ؟ قال : جئت برسالة من عند أهله . فقال : هاتها حتى نوصلها إليه ، قال : إنها مشافهة ، قال : فأسمعناها حتى نوصلها إليه . قال : إنها بالفارسية . قال : لا عليك أن تسمعناها ولا تسقط منها حرفاً . فأوردها عليه . فلما جاء التبريزى أخيراً أن رجلاً جاء من تبريز ومعه رسالة

من أهله ، فقال : ليتكم أخذتموها منه ، فإني مشوق لما يرد من أخبارهم . فقيل له : إنه قال إنها مشافهة . فتأسف لذلك . فلما رأى أبو العلاء تأصفه ، قال له : لا عليك ، إني سمعتها منه وحفظتها . ثم أملاها عليه . فجعل التبريزي يضحك مرة ، ويبكي مرة ، فسأله أبو العلاء عن ضحكك وبكائه ، فقال : تارة تخبرني بما يسرني فأضحك ، وتارة تخبرني بما يحزنني فأبكي . انتهى .

ومنه : ما حكاها الأمير أسامة بن منقذ ، قال : كان بأنطاكية خزانة كتب ، وكان الخازن بها رجلاً هلوياً ، فجلست يوماً عنده ، فقال لي : قد خبأت لك خبيثة لم تسمع بمثلا في تاريخ . فقلت : وما هي ؟ قال : صبي دون البلوغ ضرير يتردد إلى ، وقد حفظته في أيام قلائل عدة كتب ، وذلك أني أقرأ عليه الكراسة والكراستين مرة واحدة ، فلا يستعيد إلا ما شئت فيه ، ثم يتلو علي ما سمعه . قلت : فلعله يكون محفوظاً له ! فقال : سبحان الله ! كل كتاب في الدنيا يكون محفوظاً له ، ولئن كان كذلك فهو أعظم . ثم حضر المشار إليه ، وهو صبي دميم الحلقة ، مجذّر الوجه ، على عينيه بياض من أثر الجدرى ، كأنه ينظر بإحدى عينيه ، وهو يتوقد ذكاء ؛ يقوده رجل طويل أحسبه من أقاربه . فقال له الخازن : يا ولدي ، هذا السيد رجل كبير القدر ، وقد وصفتك له ، وهو يحب أن تحفظ اليوم ما يختاره لك ، فقال : سمعاً وطاعة ، فليختر ما يريد . قال ابن منقذ : فاخترت شيئاً وقرأته عليه وهو يموج ويستزيد ، فإذا مر بشيء يحتاج إلى تقريره في خاطره ، يقول : أعد هذا ، فأعيدته عليه ، حتى أتيت على ما يزيد على كراسة ، ثم قلت : يُقنع هذا من قبل نفسي . قال : أجل حرسك الله . وتلأعلى ما أمليته عليه ، وأنا أعارضه بالكتاب حرفاً حرفاً ، فكاد هقلى يذهب لما رأيت منه ، وعلمت أن ليس في العالم من يقدر على ذلك إلا إن شاء الله . وسألت عنه ،

فقيل لى : هذا أبو العلاء المعرى من بيت العلم والقضاء والثروة والغنى . هكذا يروون هذه الحكاية ، والأمير أسامة المذكور ولد سنة ٤٨٨ أى بعد موت أبي العلاء بنحو تسع وثلاثين سنة ، فالقصة على هذا موضوعة ، اللهم إلا أن تكون وقعت مع بعض أمراء بني متقذ ، ممن تقدم أسامة .

ومنه : أن سَمَّاناً حاسب عميلاً له برقاع كان يثبت فيها ما يأخذه منه عند حاجته ، وكان أبو العلاء فى غرفة يسمع محاسبتهم ، وبعد مدة ضاعت الرقاع من السَّمان ، فأخذ يتململ ويتأذى . وبلغ أبا العلاء خبره ، فقال له : ما عليك من بأس ، أنا أُملى عليك حسابه . وجعل يمليه عليه على ما فى الرقاع رقعة رقعة ، والسَّمان يكتبها . ثم وجد بعد ذلك رقاعه ، فإذا هى مطابقة لما أملاه أبو العلاء . وهذا إن صح ، فهو غاية الغايات فى قوة الحفظ والتعليق .

وقريب مما تقدم ، ما روى عن أبي تمام حين سمع البحترى ينشد قصيدته قالى أولها :

أَأَفَاقُ صَبٍّ مِنْ هَوًى فَأُفَيْقَا أُمُ خَانَ عَهْدًا أُمُ أَطَاعَ شَفِيقَا

فلما فرغ من إنشادها ، أقبل عليه باللوم والتقريع ، واتهمه بسرقة شعره ، ثم اندفع يعيد القصيدة حتى أتى على أكثرها . والقصة مشهورة . ومثله ما روى عن المتنبي فى حفظه كتاباً عرض عليه للبيع فى نحو ثلاثين ورقة . وروى مثله الإمام أبو العباس المبرد ، وهو الثقة فيما ينقل ، فذكر فى كامله أن ابن عباس رضى الله عنه لما أنشده عمر بن أبى ربيعة كلمته : (أَمِنْ آلِ نَعْمٍ أَنْتَ غَادٍ قَمْبَسِكِرُ) ، ولم يكن سمعها من قبل ، استظهرها من مرة واحدة ، وأعادها على الحضور . إلا أن ما نقل عن المعرى يفوق كل ذلك .

وذكروا أن أبا نصر أحمد بن يوسف المنازى ، دخل على أبي العلاء وهو

بالشام في جماعة من أهل الأدب ، وأنشده قوله :

وَقَانَا لَفَحَةَ الرَّمْضَاءِ وَادٍ سَقَاهُ مُضَاعَفُ الْفَيْثِ الْعَمِيمِ

نزلنا دوحه^(١) فحنا علينا حنو المرضعات^(٢) على الفطيم

وأرشفنا^(٣) على ظمأ زلالا ألد من المدامة للنديم

يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم

تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب المقد النظيم

فقال أبو العلاء : أنت أشعر من بالشام . ثم رحل أبو العلاء إلى بغداد ،

فدخل عليه المنازي في جماعة من أدبائها ، وهو لا يعرف منهم أحداً ، فأنشده

من أشعارهم ، وأنشده المنازي :

لقد عرض الحمام لنا بسجع إذا أصفى له ركب تلاحي

شجي قلب الخلى فليل : غنى وبروح بالشجي فليل : ناحا

وكم للشوق في أحشاء صب إذا اندملت أجدها لها جراحا

ضعيف الصبر عنك وإن تقاوى وسكران الفؤاد وإن تصاحا

كذلك بنو الهوى سكرى صحاة كأحداق المها مرضى صحاحا

فقال أبو العلاء : ومن بالعراق ! عطفاً على قوله : من بالشام . والراجح عندي

أن هذه القصة موضوعة ، لا لغرابتها ، فإن فيما تقدم في قصته مع السَّمان وغيره

ما هو أغرب وأعجب ، ولا يبعد على من يستظهر أوراق الحساب رقعة رقعة ،

أن يسمع صوت المنازي ونغمته في إنشاده ، فيعيه ويعرفه بعد ذلك من كلامه ؛

بل لأن الثابت في الأبيات الميمية أنها لحدونة^(٤) بنت زياد الأندلسية ، أثبت

(١) وىروى : نطل غصونه تمنو علينا .

(٢) وىروى : الوالدات .

(٣) وىروى : وأسفانا .

(٤) ورد اسمها في بعض التواريخ : حمدة ، وفي بعضها : حميدة ، وفي بعضها : حدونة .

ذلك مؤرخو الأندلس ، وجزم به أبو جعفر الوعيني الأندلسي ، وهو من الراحلين إلى المشرق . وملخص ما قاله في شرحه على بديعية صاحبه ابن جابر : أن بعض المشاركة غرهم بعد ديارها ، وخلو بلادهم من آثارها ، فانتحلوا أشياء من شعرها . ومن ذلك نسبتهم أبياتها الميمية المنازى من شعرائهم . قال : وقد رأيت بعض المؤرخين من أهل بلادنا أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازى من العدم إلى الوجود ، ويتصف بلفظة الوجود . انتهى . أما الأبيات الحائية فالراجح أنها للمنازى ، ونسبها الصفدي في شرحه على لامية العجم لابن قاضي ميلة . والله أعلم .

وقال كمال الدين بن العديم في تاريخ حلب : بلغني أن المنازى عمل هذه الأبيات ليعرضها على أبي العلاء ، فلما وصل إليه أنشده إياها ، فجعل كلما أنشده المصراع الأول من كل بيت ، سبقه أبو العلاء إلى المصراع الثاني الذي هو تمام البيت كما نظم . ولما أنشده : (نزلنا دَوْحَهُ فحنا علينا) قال أبو العلاء : (حنو الوالدات على الفطيم) فقال المنازى : إنما قلت على اليتيم . فقال أبو العلاء : الفطيم أحسن . انتهى والله أعلم .

قلت : الشيء بالشيء يذكر ، والحديث ذو شجون . والذي ذكره ابن العديم له نظائر . منها ما رواه طيفور في تاريخ بغداد عن عمارة بن عقيل . قال : أنشدت المأمون قصيدة فيها مديح له تبلغ مائة بيت ، فابتدأت بصدر البيت فبادرني إلى قافيةه ، فقلت : والله يا أمير المؤمنين ما سمعها مني أحد قط . قال : هكذا ينبغي أن يكون ، ثم أقبل علي ، فقال : أما بلغك أن عمر بن أبي ربيعة أنشد عبد الله ابن عباس قصيدته التي يقول فيها :

* تشطُّ غداً دار جيراننا *

فقال ابن عباس :

* وللدار بعد غدٍ أبعد *

ثم قال المأمون : أنا ابن ذاك . وفي « تحرير التحبير » لابن أبي الإصبع أن ابن عباس لما كمل البيت ، قال له ابن أبي ربيعة : هكذا والله قلت . فقال عبد الله : وهكذا يكون .

وروى أن جريراً والفرزدق حضرا مجلس الوليد بن عبد الملك ، وعدي بن الرقاع ينشد قصيدته :

عَرَفَ الدِّيَارَ تَوْهَمًا فَاَعْتَادَهَا مِنْ بَعْدِ مَا دَرَسَ الْبَيْلَى أَبْلَادَهَا
فَلَمَّا أَتَتْهُ إِلَى قَوْلِهِ : تَرْجِي أَغْنَى كَأَنَّ إِثْرَةَ رَوْقِهِ

تشاغل الوليد عن الاستماع ، وقطع عدي الإنشاد ، فقال الفرزدق لجرير : ما تراه يقول ؟ فقال : أراه يستلب بها مثلاً ، فقال الفرزدق : يا لكُم ! إنه سيقول : قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا . ثم عاد الوليد إلى الاستماع ، وعاد عدي إلى الإنشاد ، فنطق بالعجز كما قال . فقال جرير للفرزدق : ويحك ! فكأن سمعتك مغبوء تحت لسانه ، فقال له : اسكت ، شغلني سببك عن جيد الكلام ، والله لما سمعت صدر بيته رَحِمَتُهُ ، فلما أنشد عجزه انقلبت الرحمة حسداً . وفي رواية العقد الفريد عن الأصمعي أن جريراً هو السابق لعجز البيت لا الفرزدق . وقال زكي الدين بن أبي الإصبع في « تحرير التحبير » : الذي أقوله : إن بين ابن عباس وبين الفرزدق في استخراجهما العجزين كما بينهما في مطلق الفضل ، وفضل ابن عباس رضي الله عنهما معلوم ، وأنا أذكر الفرق . فإن بيت عدي بن الرقاع من جملة قصيدة تقدم سماع معظمها ، وعلم أنها دالية مردفة بألف موصولة مخرجة بألف منصوبة الروي من وزن معروف ، ثم تقدم في صدر البيت ذكر ظبية تسوق خشفاً لها ، قد أخذ الشاعر في تشبيهه طرف قرنه مع العلم بسواده ، وفي ذلك ما يدل على عجز البيت بحيث

يسبق إليه من هو دون الفرزدق من حذاق الشعراء . وببيت عمر مفرد لم تعلم قافيته من أى ضرب هى من القوافى ، ولا رويته من أى الحروف ، ولا حركة رويته من أى الحركات ، فاستخراج عجزه ارتجالياً فى غاية العسر ، ونهاية الصعوبة ، لولا ما أمد الله به هؤلاء القوم من المواد التى فضلوا بها عن غيرهم . ومن حذق عبد الله ابن العباس رضى الله عنهما ، ودقيق معرفته باختيار الكلام ، جعله قافية الذى أتى به (أبعد) ولم يجعلها (أنزح) وكان ذلك ممكناً له ، لكون (أبعد) أسرع ولوجاً فى السمع ، وأسبق إلى الذهن ، وأدخل فى القلب ، وأكثر استعمالاً ، وأعرف عند الكافة ، وبها جاء القرآن العزيز دون أنزح ، وهى أحب إلى اللسان ، وأولى بالبيان . انتهى كلامه بنصه .

وقد عني أن أورد هنا قصيدة عدي بن الرقاع ، لأنها لا توجد برمتها فى كتب الأدب المتداولة فى الأيدى ، مع تشوق كثير من الأدباء للوقوف عليها . قال عدي بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك أحد الخلفاء من بني أمية :

عَرَفَ الدِّيَارَ تَوْثَمًا فَاعْتَادَهَا ^(١)	مَنْ بَعْدَ مَا دَرَسَ الْبَيْلَى أَبْلَادَهَا
إِلَّا رَوَاسِيَ كُلَّهَا قَدْ اضْطَلَى	جَمْرًا وَأَشْعَلَ أَهْلَهَا ^(٢) إِيقَادَهَا
كَانَتْ رَوَاحِلَ الْقُدُورِ فَعَرَّيْتُ	مِنْهُمْ وَاسْتَلَبَ الزَّمَانُ رِمَادَهَا
وَتَنَكَّرْتُ كُلَّ التَّنَكَّرِ بَعْدَنَا	وَالْأَرْضُ تَعْرِفُ بَعْلَهَا ^(٣) وَجَمَادَهَا
وَلَرُبَّ وَاضِحَةٍ الْجَبِينِ خَرِيدَةٍ	بَيْضَاءُ قَدْ ضَرَبَتْ بِهِ أَوْتَادَهَا ^(٤)

(١) اعتادها : أعاد النظر إليها مرة بعد أخرى لدروسها حتى صرفها ، والرواية فى الأغاني واللسان : شمل بدل درس . والأبلاد : جمع بلد وهو الأثر .

(٢) رواية الأغاني : رواكده ، بدل : رواسى ، و : جمراء أشعل ، بدل : جراً وأشعل .

(٣) البعل : الأرض المرتفعة التى لا يصبها مطر إلا مرة واحدة فى السنة ، والجماد : اليابسة

التي لم يصبها مطر ولا شئ فيها .

(٤) رواية الأغاني :

ولرب واضحة العوارض طلعة كالريم قد ضربت به أوتادها

تَضَطَّادُ بِهَجَّتْهَا الْمُعَلَّلُ بِالصَّبَا
كَالظَّبْيَةِ الْبِكْرِ الْفَرِيدَةِ تَرْتَعِي
خَصِيبَتْ بِهَا عَقْدُ الْبَرَقِ حَنِينِهَا
كَالزَيْنِ فِي وَجْهِ الْعُرُوسِ تَبَدَّدَتْ
تُرْجِي أَغْنَى كَأَنَّ إِثْرَهُ رَوْقِي
رَكِبَتْ بِهِ مِنْ عَالِجٍ مُتَحِيرًا
فَقَرَى مَحَالِيَهُ الَّتِي تَسِقُ الثَّرَى
بَانَتْ سَعَادُ وَأَخْلَفَتْ مِيعَادَهَا
إِنِّي إِذَا مَا لَمْ تَصْلُنِي خُلَّتِي
إِمَّا تَرَى شَيْبِي تَقَشَّعَ لِقَتِي
فَلَقَدْ ثَنَيْتُ يَدَ الْفَتَاةِ وَسَادَةَ
وَأَصْحَابِ الْجَيْشِ الْعَرْمَرَمِ فَارِسًا
وَقَصِيدَةٍ قَدْ بَتُّ أَنْجَعُ بَيْنَهَا
نَظَرَ الْمُشَقِّفِ فِي كُؤُوبِ قِنَاتِهِ
فَسَتَرْتُ عَيْبَ مَعِيشَتِي بِتَكْرُمِ
وَعِلْمْتُ حَتَّى مَا أَسْأَلُ وَاحِدًا

عَرَضًا فَتَقْصِدُهُ وَإِنْ يَعْطَا دَهَا (١)
مِنْ أَرْضِهَا قَفَاتِهَا وَعِهَا دَهَا
عَنْ عَكْرَهَا عَلَجَانِهَا وَعَرَادَهَا
بَعْدَ الْحَيَاءِ فَلَا عِبْتَ أَرْضَادَهَا (٢)
قَلَمُ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا (٣)
قَفْرًا تَرِثُ وَخَشُهُ أَوْلَادَهَا
وَالْهَبْرُ يُونِقُ نَبْتَهَا رُؤَادَهَا (٤)
وَتَبَاعَدَتْ عَنَّا لَتَمْنَعُ زَادَهَا
وَتَبَاعَدَتْ عَنِّي اغْتَفَرْتُ بَعَادَهَا (٥)
حَتَّى عَلَا وَضَحُ يَلُوحُ سَوَادَهَا (٦)
لِي جَاعِلًا يُسْرِي يَدَيَّ وَسَادَهَا
فِي الْخَيْلِ أَشْهَدُ كَرَّهَا وَطِرَادَهَا
حَتَّى أَقْوَمَ مَمِيلَهَا وَسِنَادَهَا
حَتَّى يُقِيمَ ثِقَافَهُ مُنَادَهَا
وَأَتَيْتُ فِي سَعَةِ النِّعَمِ سَدَادَهَا
عَنْ عِلْمٍ وَاحِدَةٍ لَكِي أَرْدَادَهَا

- (١) المَعَلَّلُ بالصَّبَا : المشغول به المتلهي ، وأَقْصِدُهُ : رماه بِسَهْمٍ فقتله .
(٢) الْأَرْضَادُ : جمع رُئْدٍ بالكسر ، وهو القرب ، وأَكْثَرُ مَا يَكُونُ فِي الْإِنَاتِ .
(٣) الرُّوقُ : القرن .
(٤) تَسَقُّ تَجْمَعُ ، والمراد تَكْرُمُ نَبَاتِهَا . وَالْهَبْرُ : الطَّمْنُ مِنَ الْأَرْضِ ، وَقَدْ ضَبِطَ فِي لِسَانِ
مَرْبٍ : نَبْتِهَا بِالنَّصْبِ وَرُؤَادَهَا بِالرَّفْعِ ، وَالصَّوَابُ الْعَكْسُ .
(٥) الْحَلَّةُ بِالضَّمِّ : الْحَلِيلُ ، يَسْتَوِي فِيهِ الْمَذْكَرُ وَالْمُؤَنَّثُ ؛ لِأَنَّهُ فِي الْأَصْلِ مُصْدَرٌ .
(٦) لَاحَهُ : غَيَّرَهُ .

صلى الإله على امرئ ودعته
 وإذا الربيع تنابعت أنواؤه
 نزل الوليد بها فسكران لأهلها
 أو لا ترى أن البرية كلها
 ولقد أراك الله إذ ولاكها
 وعمرت أرض المسلمين فأقبلت
 وأصبّت في بلد العدو مصيبة
 ظفراً ونصراً ما تناول مثله
 وإذا نشرته له الشئاء وجدته
 غلب المساميح الوليد سماحة
 تأتية أسلاب الأعزّة عنوة
 وإذا رأى نار العدو تضرّمت
 بعزم رم تيدو الروابي ذى وعى
 أطفأت ناراً للحروب وأوقدت
 فبدت بصيرتها لمن يبغي الهدى
 وإذا غدا يوماً بنفحة نائل

وأتمّ نعمته عليه وزادها
 فسقى خنصرة الأحصّ فجادها^(١)
 غيثاً أغاث أنيسها وبلادها
 ألقت خزائنها إليه فقادها
 من أمة إصلاحها ورشادها^(٢)
 ونفّيت عنها من يريد فسادها^(٣)
 بلغت أقاصى غورها ونجادها
 أخذ من الخلفاء كان أرادها
 جمع المكارم طرفها وتلاذها^(٤)
 وكفى قرّيش المضلات وسادها
 قسراً ويجمع للجروب عتادها^(٥)
 سامى جماعة أهلها فأقتادها
 كالحرّة احتمل الضحى أطوادها^(٦)
 نار قدحت براحتيك زنادها
 وأصاب حرّ شديدها حسادها
 عرضت له الغد مثلاً فأعادها

(١) خنصرة : بليدة من أعمال حلب ، وهي قصبة كورة الأحص .

(٢) رواية العقد الفريد والأغانى : ولقد أراد الله .

(٣) رواية الأغانى : وكففت ، بدل : ونفّيت .

(٤) الطرف والطريف والطارف : المال المستفاد . والتلاذ : القديم الأصلى .

(٥) العتاد بالفتح : العدة والأهبة ، ورواية العقد الفريد :

لم تأت أسلاب إلا عنوة غصبا ويجمع للحروب عتادها

(٦) الوعى بالمهمة : الجلبة ، والحرّة بالفتح : الأرض الصلبة الغليظة ، والمعنى : أن الآل

الذى يكون فى الضحى رفع جبالها ، فان رآها الناظر رأى أنها قد طالت وعظمت .

وإذا عَدَّتْ خَيْلٌ مُّبَادِرُ غَايَةٍ فالسابق الجالى يقودُ جِيَادَهَا^(١)
تَمَّتِ الْقَصِيدَةُ . وَيُرْوَى أَنَّ عَدِيًّا أَنْشَدَهَا الْوَلِيدَ وَعِنْدَهُ كَثِيرٌ ، وَكَانَ قَدْ بَلَغَهُ
عَنْ عَدِي أَنَّهُ يَطْمَنُ عَلَى شَعْرِهِ ، وَيَقُولُ : هَذَا شَعْرُ حِجَازِي مَقْرُورٌ ، إِذَا أَصَابَهُ قُرْءُ
الشَّامِ جَدَّ وَهَلَكَ . فَلَمَّا أَتَى عَدِي عَلَى قَوْلِهِ :

وَقَصِيدَةٌ قَدْ بَتُّ أَجْمَعُ بَيْنَهَا حَتَّى أَقُومَ مِيَاهَا وَسِنَادَهَا
قَالَ لَهُ كَثِيرٌ : لَوْ كُنْتَ مَطْبُوعًا أَوْ فَصِيحًا أَوْ عَالِمًا ، لَمْ تَأْتِ فِيهَا بِمِثْلِ وَلَا سِنَادٍ ،
فَتَحْتَاجُ إِلَى أَنْ تَقُومَهَا . ثُمَّ أَنْشَدَ :

نَظَرَ الْمُتَقَفِّ فِي كُفُوبِ قَنَاتِهِ حَتَّى يُقِيمَ ثِقَافَهُ مُنَادَاهَا
فَقَالَ كَثِيرٌ : لَا جَرَمَ أَنَّ الْأَيَّامَ إِذَا تَطَاوَتَ عَلَيْهَا عَادَتْ عَوْجَاءً ، وَلَئِنْ
تَكُونُ مُسْتَقِيمَةً لَا تَحْتَاجُ إِلَى ثِقَافٍ أَجُودَ لَهَا . ثُمَّ أَنْشَدَ :

وَعَلِمْتُ حَتَّى مَا أَسْأَلُ وَاحِدًا عَنْ عِلْمٍ وَاحِدَةٍ لَكِي أَزْدَادَهَا
فَقَالَ كَثِيرٌ : كَذَبْتَ وَرَبَّ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، فَلَيْمَتَحْنُكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ
يَسْأَلَكَ عَنْ صِفَارِ الْأُمُورِ دُونَ كِبَارِهَا حَتَّى يَتَبَيَّنَ جَهْلُكَ ، وَمَا كُنْتَ قَطُّ أَحَقَّ
مِنْكَ الْآنَ حَيْثُ تَظُنُّ هَذَا بِنَفْسِكَ . فَضَحِكَ الْوَلِيدُ وَمَنْ حَضَرَ ، وَقَطَعَ عَدِيَّ
ابْنُ الرَّقَّاعِ حَتَّى مَا نَطَقَ .

وَرَوَى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْجَمِ أَنَّهُ قَالَ : مَا ذُكِرَ لِي أَحَدٌ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَرَاهُ ،
فَإِذَا رَأَيْتُهُ أَمَرْتُ بِصَفْعِهِ ؛ إِلَّا عَدِيَّ بْنَ الرَّقَّاعِ ، لِقَوْلِهِ :
وَعَلِمْتُ حَتَّى مَا أَسْأَلُ ... الْبَيْتَ . فَكُنْتُ أَعْرِضُ عَلَيْهِ أَصْنَافَ الْعُلُومِ
فَكَلِمًا مَرَّ بِهِ شَيْءٌ ، وَلَا يَحْسَنُهُ ، أَمَرْتُ بِصَفْعِهِ .

(١) فِي الْأَصْلِ : وَإِذَا عَدَّتْ خَيْلًا يَبَادِرُ غَايَةً .

فصل فى مؤلفاته

قال أبو العلاء : لزمّت مسكنى منذ سنة أربع مائة ، واجتهدت على أن أتوفر على تسبيح الله وتحميده ، إلى أن أضطر إلى غير ذلك ، فأملت أشياء ، وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله بن أبي هاشم ، أحسن الله معونته ، فألزمنى بذلك حقوقاً جمة وأيادى بيضاء ، لأنه أفنى فى زمنه ، ولم يأخذ عما صنع ثمنه ، والله يحسن له الجزاء ، ويكفيه حوادث الزمن والأرزاء . انتهى .

وقد رتبنا أسماء هذه الكتب على حروف المعجم ، تسهيلاً على المطالع ! واعتمدنا فيما ذكرناه منها على ما فى « إرشاد الأريب » لياقوت ، و « كشف الظنون » لمصطفى بن عبد الله الشهير بكتاب جلبي ، وغيرهما من كتب التراجم والأخبار . وتكلمنا على ما وقفنا عليه منها بما يتسع له هذا المختصر :

(١) أدب العصفورين : رسالة ذكرها ياقوت ، وصاحب كشف الظنون .

(٢) استغفر واستغفرى : كتاب فى المنظوم ، به نحو عشرة آلاف بيت ،

ويقع فى مائة وعشرين كراسة ، ذكره ياقوت ، وأهمله صاحب الكشف .

(٣) إسعاف الصديق : فى ثلاثة أجزاء ، يتعلق بكتاب الجمل فى النحو

للزجاجى المتوفى سنة ٣٣٩ . ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف .

ر (٤) إقليد الغايات : كتاب لطيف ، قصره على تفسير ما جاء من اللغز فى

كتابه : الفصول والغايات ، ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف .

(٥) الأمالى : لم يذكره ياقوت ، وقال صاحب الكشف : هو مائة كراسة

ولم يكمله .

(٦) الأيك والفصون : ذكره ياقوت وصاحب الكشف في حرف الكاف في الكتب ، ويسمى أيضاً بالهمزة والردف ؛ لأنه بناء على إحدى عشرة حالة للهمزة في حال إفرادها وإضافتها . مثاله : سماء بالرفع والنصب والخفض ، سماء بالتنوين ، سماء سماء سماء بالحرركات الثلاث مع الإضافة للضمير المذكر ، سماء سماء سماء بها مع الإضافة للمؤنث ، ثم همزة بعدها هاء ساكنة مثل : عبادة وملاة . فإذا ضربت الإحدى عشرة في حروف المعجم الثمانية والعشرين ، خرج من ذلك ثلاثمائة فصل وثمانية ، وهي مستوفاة في هذا الكتاب . وذكر فيه أيضاً الأرداف الأربعة بعد ذكر الألف . ومبناه على العظمت وضم الدنيا . ومقداره ألف ومائتا كراسة ، تقع في اثنين وتسعين جزءاً كما ذكر ياقوت . وقال ابن خلكان : بلغني أن له كتاباً سماه الأيك والفصون وهو المعروف بالهمزة والردف ، يقارب المائة جزء ، في الأدب ؛ وحكى لي من وقف على المجلد الأول بعد المائة ، فقال : لا أعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد .

(٧) بحر الزجر : يتعلق بكتاب « زجر النابح » ، ذكره ياقوت ، ولم يذكر في كشف الظنون .

(٨) تاج الحرة في عظات النساء خاصة ، وتختلف فصوله ، فمنها ما يجيء بعد حرفه الذي يثبت ثبات الروى ياء التأنيث ، كقوله : شائى وتشائى وتسائى ونحوها . ومنه ما هو مبني على الكاف نحو غلامك وكلامك . ومنها ما يجيء على تفعلين ، مثل ترغيبين وتذهيبين ، وأنواع هذا الكتاب كثيرة ، ويقع في أربعمائة كراسة ، كما في ياقوت وكشف الظنون .

(٩) تضمين الآى : لم يذكره صاحب كشف الظنون ، وقال ياقوت : هو كتاب مختلف الفصول ؛ فمنه طائفة على حروف المعجم ، وقبل الحرف المعتمد

ألف ، مثل أن يقال في الهمزة : بناء ونساء ، وفي الباء : ثياب وعباب . ثم على هذا إلى آخر الحروف . ومنه فصول على فاعلين وعلى فاعلون وغير ذلك . والغرض أن يأتي بعد اتقضاء الكلام بآية من الكتاب العزيز أو بعض آية ، وربما يحىء بآيتين . قال : والسبب في تأليفه أن بعض الأهرء سأله أن يؤلف كتاباً برسمه ، ولم يؤثر أن يؤلف شيئاً في غير العظاء ، والحث على تقوى الله ، فأملى هذا الكتاب ، ويقع في أربعائة كراسة .

(١٠) تعليق الجليس : مما يتصل بكتاب الجمل لازجأجي ، في جزء واحد . ذكره ياقوت ، ولم يذكرفى الكشف .

(١١) تفسير خطبة الفصيح : فسر فيه غريب كتابه خطبة الفصيح . ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف .

(١٢) تفسير الهمزة والردف : في جزء ، ذكره ياقوت ولم يذكرفى الكشف . (١٣) جامع الأوزان : فيه شعر منظوم على معنى يعم به الأوزان الخمسة عشر التى ذكرها الخليل ، بجميع ضروبها ، ويذكر قوافى كل ضرب ، به تسعة آلاف بيت ، ومقداره ستون كراسة في ثلاثة أجزاء . ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف .

(١٤) الجلى والحلبى : هكذا ورد في نسخة ياقوت ، وكتب مصححه : لعله « الحللى الحلبي » ، سأل فيه صديق له من أهل حلب ، يعرف بابن الحللى ، مجلد واحد ، وعشرون كراسة . ولم يذكرفى كشف الظنون .

(١٥) الحقيق النافع : مختصر فى النحو . خمس كراسات ، كما فى ياقوت والكشف ، وذكره السيوطى فى بعية الوعاة .

(١٦) خادم الرسائل : فى تفسير ما تضمنته رسائله من الغريب ، سواء كانت

من الرسائل الطوال ، كالغفران والملائكة ونحوهما ؛ أو ما دونها . ولم يذكر فيه إلا ما يحتاج إليه المبتدئون في الأدب ، وسماه صاحب كشف الظنون : خادمة الرسائل .

(١٧) خطبة الفصح : تكلم فيه عن أبواب الفصح في خمس عشرة كراسة ، كما في ياقوت والكشف ، وله تفسير غريبه ، وقد مضى ذكره .
(١٨) خطب الخليل : تكلم فيه على ألسنتها في عشر كراسات ، كما في ياقوت والكشف .

(١٩) خماسية الراح : قال ياقوت : هو كتاب لطيف في ذم الخمر ومعنى هذا الوسم أنه بنى على حروف المعجم ، فذكر لكل حرف تمكن حركته خمس سجمات مضمومات ، وخمسا مفتوحات ، وخمسا مكسورات ، وخمسا موقوفات . يكون مقداره عشر كراسات . وتصحف اسمه على صاحب كشف الظنون بحماسة الراح ، فذكره في حرف الحاء .

(٢٠) دعاء الأيام السبعة : ذكره ياقوت .

(٢١) دعاء ساعة : ذكره أيضاً .

(٢٢) دعاء وحرز الخليل : ذكره أيضاً .

(٢٣) ديوان الرسائل : وهي ثلاثة أقسام كالغفران والسندية ونحوهما ، وسندكر منها ما وقفنا على اسمه . ومنها مادون تلك ، كالرسالة الإغريقية ، ورسالة المنيع . ومنها قصار كنحو ما تجرى به العادة في المكاتبة . قال ياقوت وصاحب كشف الظنون : إنها تقع جميعها في ثمانمائة كراسة . وقد طبع قسم من هذه الرسائل في بيروت وأكسفورد ، وعندى منها نسختان مخطوطتان في إحداها مكاتبات جرت بينه وبين ابن أبي عمران داعي الدعاة بمصر ، وهي التي لخصها

ياقوت في إرشاد الأريب ، وقد مضى أنه شرح رسائله في كتابه : خادِم الرِسا ئِل .
(٢٤) ذكرى حبيب : ذكره صاحب الكشف ، وقال ياقوت : إنه مختصر
في غريب شعر أبي تمام ، سأله فيه صديق له من الكتاب . مقداره ستون كراسة
في أربعة أجزاء . وقال ابن خلكان : إنه اختصر ديوان أبي تمام وشرحه وسماه :
ذكرى حبيب . وفي مقدمة شرح ديوان أبي تمام للتبريزي أن أبا العلاء إنما
ذكر في هذا الكتاب الأبيات المشككة من شعر أبي تمام متفرقة . ومن فوائده
التي نقلها عنه أن شعر أبي تمام إنما أغلق ، لأنه لم يؤثر عنه ، فتنقلت الضعفة من
الزواة ، والجهلة من الناسخين ، فبدلوا الحركة بالحركة ، وأوقعوا الناظر بما جَنَّوْهُ
في أم أدراص^(١) وتُغْلَس ، وغيروا الأحرف بسوء التصحيف ، فغادروا الفهم
خابطاً في عشواء ؛ لأن تغيير الضمة إلى الفتحة والكسرة ، يُنْشِبُ الفطن في
حِبَالَةٍ ؛ فأما نقل الحاء إلى الخاء ، والدال إلى الذال ، فيحدث عنه إلباس ،
ويقرن به بلادة وإشكاس .

(٢٥) الراحلة : ثلاثة أجزاء في تفسير لزوم ما لا يلزم . ذكره ياقوت فقط .

(٢٦) راحة اللزوم : يشرح فيه ما في لزوم ما لا يلزم من الغريب ، نحو مائة
كراسة ، كما في ياقوت والكشف .

(٢٧) الرسالة الحُضِّيَّة : كذا ذكرها ياقوت .

(٢٨) الرسالة الزعفرانية : ذكرها صاحب الكشف ولم يذكرها ياقوت .

(٢٩) الرسالة السندية : ذكرت في ياقوت والكشف .

(١) أم أدراص : الداهية . ويقال : وقع في وادي تغلس غير مصروف كتغيب
وتهلك ، في داهية منكرة ، والأصل فيه أن الغارات كانت تقع بكرة بغلس .

(٣٠) رسالة العروض : هكذا في كشف الظنون ، وفي نسخة ياقوت : الفرض
بالفاء ، ولعله القرض أو القريض بالقاف .
(٣١) رسالة على لسان ملك الموت : ذكرها ياقوت ، ولا أدري إن كانت
رسالة الملائكة أو غيرها .

(٣٢) رسالة الغفران : كتبها لعلی بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح ،
جواباً على رسالة أرسلها له يذكر بها شوقه إلى لقائه ، وينحى فيها على الزنادقة ،
ويتنقص الوزير المغربي صديق أبي العلاء . فأجابه برسالة الغفران ، وضمنها فنونا
شتى من اللغة والأدب ، ونحا فيها نحواً غريباً ، فاستطرد إلى الجنة ، فوصفها بوصفا
يشوق النفوس إليها ، ويرغبها في نعيمها ، وذكر النار وأهوالها بطريقة لا تسأمها
النفوس . وقد طبعت هذه الرسالة بمصر سنة ١٣٢٥ ، وعندى منها نسختان
مخطوطتان ، وبتدار الكتب الحديوية بالقاهرة نسخة من كتب الأستاذ
الشنقيطي — رحمه الله — وفي القسطنطينية العظمى نسخة أخرى في خزانة
السكريلي . وكنت في شوق لرسالة ابن القارح المذكورة ، حتى ظفرت بها في مجموع
نفيس وقع لي .

(٣٣) رسالة الملائكة : اقتصر ياقوت وصاحب الكشف على ذكر اسمها ،
وقال أبو الفضل المؤيد بن الموفق الصاحب في كتاب « الحكم البوالغ » في شرح
الكلم النوابع : « رسالة الملائكة ، ألفها أبو العلاء المعري على جواب مسائل تصريفية
ألقاها إليه بعض الطلبة ، فأجاب عنها بهذا الطريق الظريف المشتمل على الفوائد
الأنيقة . انتهى . قلت : وأسلوبه فيها غريب ، افتتحها معذراً للأسائل بكبر سنه ،
وبعد عهده بالمسائل النحوية والصرفية ، وقربه من الموت . ثم بدأ في الجواب
فقال : « أَقْتَرَانِي أَدَافِعُ مَلَكَ الْمَوْتِ ، فَأَقُولُ : أَصِلْ مَلَكَ مَالِكٍ . الخ » فساق هذا

البحث في مناقشته مع الملك ، وأتى بشواهد من كلام العرب ، إلى أن انتقل إلى بحث آخر ، فقال : « فيقول الملك : من ابن أبي ربيعة وأبو عبيدة ، وما هذه الأباطيل ؟ إن كان لك عمل صالح فأنت سعيد ، وإلا فافخسأ وراءك ، فأقول : فأملني حتى أخبرك بوزن عنرائيل ، وأقيم الدليل على أن الهمزة فيه زائدة . . . الخ » ثم انتقل إلى ناكر ونكير ، فباحثهما عن اسميهما ، وهكذا حتى أتم الإجابة عن الأسئلة في هذا السياق العجيب . وعندي من هذه الرسالة نسخة مخطوطة ضمن مجموع ، وبتدار الكتب الأزهرية بالقاهرة أخرى ، وقد أوردها السيوطي بتمامها في كتابه الأشباه والنظائر النحوية .

(٣٤) رسائل المعونة : وهي التي كتبها على لسان غيره ، ذكرها ياقوت وصاحب الكشف .

(٣٥) رسل الراموز : نحو ثلاثين كراسة . ذكره ياقوت .

(٣٦) الرياش المصطنعي : في شرح مواضع من الحماسة الرياشية ، ألفه الأمير مصطنع الدولة أبي غالب كليب بن علي ، وكان أنفذ إليه نسخة من هذه الحماسة ، وسأله أن يخرج على حواشيه شيئاً مما لم يذكره أبو ريش ، فخشي أن تضيق الحواشي عن ذلك ، فصنع هذا الكتاب في أربعين كراسة . ذكر في ياقوت والكشف .

(٣٧) زجر النابح : يتعلق بلزوم مالا يلزم ، وذلك أن بعض الجهال تكلم على أبيات من لزوم مالا يلزم ، يريد بها التشرير والأذية ، فالزم أبا العلاء أصدقائه بإنشائه ، فأنشأه وهو كاره . مقداره أربعون كراسة في جزء واحد . ذكره ياقوت وصاحب الكشف . وله كتاب يتعلق بهذا ورد اسمه في نسخة ياقوت « بحر الزجر » وقد مضى ذكره .

(٣٨) السادن : أنشأه في تفسير غريب كتابه الفصول والغايات ، وما فيه من اللغز . مقداره عشرون كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الكشف .

(٣٩) السجعات العشر : موضوع على كل حرف من حروف المعجم عشر سجعات في المواعظ . ذكره ياقوت وصاحب الكشف .

(٤٠) سجع الحمام : تكلم فيه على لسان حمام أربع ، وكان بعض الرؤساء سألته أن يصنف له تصنيفاً يذكر فيه ، فأنشأ هذا الكتاب ، وجعل ما يقوله على لسان الحمامة في العظة والحث على الزهد . مقداره ثلاثون كراسة ، في أربعة أجزاء . ذكر في ياقوت والكشف .

(٤١) السجع السلطاني : يشتمل على مخاطبات الملوك والوزراء وغيرهم من الولاة ، سألته فيه بعض من خدم السلطان ، وارتفعت طبقة ، ولم يكن له قدم في الكتابة ، فطلب أن يُنشأ له كتاب مسجوع من أوله إلى آخره ، ولا يشعر بما يريد ، لقلة خبرته بالأدب . فأنشأ له هذا الكتاب . قال ياقوت : في أربعة أجزاء ؛ وقال صاحب الكشف : إنه ثمانون كراسة .

(٤٢) سجع الفقيه : جزء في ثلاثين كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الكشف .

(٤٣) سجع المضطرين : كتاب لطيف ، عمله لرجل تاجر مسافر ، يستعين به على أمور دنياه . ذكره ياقوت وصاحب الكشف .

(٤٤) سقط الزند : وهو ديوان يشتمل على أكثر من ثلاثة آلاف بيت ، ضمنه شعره في صباه . وسمّاه بذلك لأن السقط أول نار تخرج من الزند ، فشبه شعره الأول به . قال التبريزي : لما حضرت أبا العلاء ، قرأت عليه كثيراً من كتب اللغة ، وشيئاً من تصانيفه ، فرأيت يكره أن يُقرأ عليه شعره في صباه ،

الملقب بسقط الزند ، وكان يغير الكلمة بعد الكلمة منه إذا قرئت عليه ، ويقول معتذراً عن تأنيئه ، وامتناعه من سماع هذا الديوان : مدحت نفسي فيه ، فلا أشتى أن أسمعه . وكان يحثني على الاشتغال بغيره من كتبه . انتهى . ولهذا الديوان شروح ، أولها شرح لأبي العلاء نفسه سماه (ضوء السقط) وهو غير واف ، نقله عنه التبريزي ، وأوضح مشكلاته ، وذكر اللغة الغريبة ، واقتصر في تفسير المعاني على ما لا بد منه . ثم تناوله أبو يعقوب يوسف بن ظاهر النحوي ، فأصلحه وزاد فيه ، وسماه : «التنوير» وطبع بمصر غفلاً من اسم مؤلفه . ومن شروح هذا الديوان شرح الفخر الرازي ، و «ضرام السقط» لمجد الدين أبي الفضل قاسم بن حسين بن محمد الخوارزمي المشهور بصدر الأفاضل النحوي ، وقفت على نسخة منه في خزانة آل رفاعة بالقاهرة . و «الزوائد» لأبي رشاد الإخسيكتي ، و «العمدة» لابن البارزي ، وشرح ابن السيد البطليوسي وهو عزيز الوجود ، وقعت لي منه أوراق من نسخة قديمة ، فإذا به شرح على ديوان ممزوج من سقط الزند واللزوميات . وقد انتقد أبو بكر بن العربي على مواضع منه ، فردّ عليه ابن السيد في رسالة لطيفة ، وقفت عليها وهي عندي . وللمشيخ تاج الدين بن عبد الرحمن شرح على قصيدة لامية من هذا الديوان مطلعها :
* ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل *

سماه : «مراقى العلا» في شرح لامية أبي العلاء وهو عندي في مجموع .
(٤٥) سيف الخطيب : هكذا في الكشف ، وفي ياقوت «سيف الخطبة» . وهو جزآن ، يشتمل على خطب السنة ، فيه خطب للجمع والعيد والחסوف والكسوف والاستسقاء وعقد النكاح ، وهي مؤلفة على حروف من حروف المعجم ، فيها خطب عمادها الهمزة ، وخطب بنيت على الباء ، وخطب على الدال ،

وعلى الراء ، وعلى اللام ، وعلى الميم ، وعلى النون ، وتركزت الجيم والخاء وما
يجرى مجراها ؛ لأن الكلام المقول في الجماعات ينبغي أن يكون سَجَسَجًا^(١) سهلاً .
مقداره أربعون كراسة . وكان سألته فيه رجل من المتظاهرين بالديانة .

(٤٦) شرح الرسالة الإغريقية : لم يذكره ياقوت ، وذكره صاحب
الكشف . مقداره عشرون كراسة . وللشيخ إبراهيم الفصيح بن صبغة الله
الحيدري ، من علماء أواخر القرن الثالث عشر ، شرح على الرسالة الإغريقية ،
سماه : النواذر الحكيمية والأدبية ، ألفه برسم مصطفى باشا بن إبراهيم بن محمد علي
والى مصر ، وتوجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب الخديوية بالقاهرة .

(٤٧) شرح كتاب سيديويه : في النحو ، في خمسين كراسة ، ولم يتمه .
كما في ياقوت والكشف وبغية الوعاة .

(٤٨) شرف السيف . قال ياقوت : عمله لنشككين الدرزي الذي كان مقبلاً
بدمشق ، والسبب فيه أنه كان يوجه إلى أبي العلاء بالسلام ، ويخفى المسألة
عنه ، فأراد جزاءه على ما فعل . وهو في جزئين . وفي كشف الظنون : « شرف
السلف عشرون كراسة عمله للأمير الجيوش » .

(٤٩) الصاهل والشاحج : يتكلم فيه على لسان فرس وبغل ، مقداره
أربعون كراسة ، صنّفه لأبني شجاع فانت الملقب بمزين الدولة والى حلب من قبل
المصريين ، وكان رومياً . ذكره ياقوت ، وصاحب الكشف في الرسائل . وفي
خطط المقرئ ج ٢ ص ١٥٤ رواية رواها أبو العلاء في الصاهل والشاحج ،
للبيتين : زر وادي القصر . . . الخ .

والشاحج : البغل ؛ وشحيجه ، وشحاجه : صوته .

(١) السجسج : الذي بين الصلابة واللين . والهواء السجسج : ليس بحار ولا بارد .

(٥٠) ضوء السقط : فسر فيه غريب ديوانه سقط الزند ، مقداره عشرون كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الكشف وابن خلكان . وقد فصل بعضهم الدرعيّات من سقط الزند ، وطبعها على حدة في بيروت ، وسماها : ضوء السقط ، وهو خطأ ينبغي أن يُتَنَبَّهَ له .

(٥١) الطلّ الطاهري : أنشأه لرجل يعرف بأبي طاهر . ذكره ياقوت ، ولم يذكر في الكشف .

(٥٢) ظهير العضدي : يتصل بالكتاب المعروف بالعضدي في النحو . ذكره ياقوت وصاحب الكشف والسيوطي .

(٥٣) عبث الوليد : يؤخذ من عبارة ابن خلكان أنه اختصر فيه شعر البحتری وشرحه ، واسم الكتاب لا يدل على ما قال . وقال غيره : إنه يتضمن أغاليط البحتری . وقال ياقوت : إنه يتصل بشعر البحتری ، وكان سبب إنشائه أن بعض الرؤساء أنفذ نسخة ليُقاَبلَ بها ، فأثبت ما جرى من الغلط ليعرض ذلك عليه . وهو جزء واحد في عشرين كراسة . أقول : قد وقعت لي نسخة من هذا الكتاب ، فوجدتها كما قال ياقوت ، والخطأ الذي يذكره أبو العلاء تارة يكون من النسخة المرسلة إليه ، وتارة من الناظم نفسه ؛ ولهذا سماه بعبث الوليد تورية باسمه ، لأن البحتری اسمه الوليد . والوليد أيضاً : الصبي ، فكأنه قال : لعب الصبي وخطئه . ورتب فيه الأبيات التي تعرض لها على حروف المعجم باعتبار قوافيها ، وله فيه فوائد وآراء ؛ كقوله في بيت البحتری في وصف فرس :

أخواله للرُسْتَمَيْنِ^(١) بفارس وجدوده للثَّبَعَيْنِ بِمَوْكَلِ^(٢)

(١) رستم : بضم الراء وسكون السين وفتح المثناة الفوقية ، وقد تضم .

(٢) موكل موضع ، ولا نظير له إلا مورك اسم ملك للروم وموزن وموهب وموظب =

قال : يروى الرُّسْتَمِيُّ عَلَى الْجَمْعِ وَكَذَلِكَ التَّبَعِيُّ ، وَيُروى بالتثنية ، وَالْجَمْعُ أَشْبَهُ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ أَخُوهُ فَجَمَعَ ، وَكَذَلِكَ قَالَ جَدُّهُ . فَأَنَّ تَكُونَ الْأَخْوَالَ وَالْجُدُودَ لِلْمُلُوكِ كَثِيرَةٌ أَشْبَهُ مِنْ أَنْ تَكُونَ لِلْمَسْكِينِ . انْتَهَى كَلَامُهُ . قُلْتُ : وَقَدْ يُقَالُ أَيْضًا فِي تَرْجِيحِ مَا رَجَّعَهُ أَنْ لَا وَجْهَ لِتَخْصِصِ اثْنَيْنِ مِنْ تَبَاعِثِ الْيَمَنِ بِالذِّكْرِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ عَنْ اثْنَيْنِ مُخْصَّصَيْنِ مِنْهُنَّ امْتِازًا بِشَهْرَةٍ تَصْرِفُ إِلَيْهِمَا الْأَذْهَانَ ، إِذَا ذُكِرَ التَّبَعَانِ ، وَمَا يُقَالُ فِيهِمَا يُقَالُ فِي الرُّسْتَمِيِّ ، فَرَوَايَةُ الْجَمْعِ أَرْجَحُ وَأَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ .

(٥٤) عِظَاتُ السُّورِ : ذَكَرَهُ يَاقُوتٌ ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ عَلَيْهِ .

(٥٥) الْعِظَةُ وَالزَّهْدُ : لَمْ يَذْكُرْهُ يَاقُوتٌ ، وَذَكَرَهُ صَاحِبُ الْكَشْفِ فِي حَرْفِ الْكَافِ فِي الْكُتُبِ ، وَقَالَ : مِائَةٌ وَعِشْرُونَ كِرَاسَةً .

(٥٦) عَوْنُ الْجُمَلِ : قَالَ يَاقُوتٌ : يَتَّصِلُ بِكِتَابِ الزَّجَّاجِيِّ ، عَمَلُهُ لِأَبِي الْفَتْحِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي هَاشِمٍ ، وَهُوَ آخِرُ شَيْءٍ أَمْلَأَهُ ، وَفِي كَشْفِ الظُّنُونِ أَنَّهُ شَرَحَ لَشَوَاهِدِ جُمَلِ الزَّجَّاجِيِّ لَمْ يَتِمَّ ، وَكَذَلِكَ فِي بَغِيَةِ الْوَعَاةِ لِلْسَّيُوطِيِّ .

(٥٧) الْفُصُولُ : لَمْ يَذْكُرْهُ يَاقُوتٌ ، وَذَكَرَهُ صَاحِبُ الْكَشْفِ فَقَالَ : إِنَّهُ غَيْرُ الْفُصُولِ وَالْغَايَاتِ ، وَهُوَ أَرْبَعُمِائَةٍ كِرَاسَةً .

(٥٨) الْفُصُولُ وَالْغَايَاتُ : هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي زَعَمَ شَائِئُوهُ أَنَّهُ عَارِضٌ بِهِ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ ، وَسَمَّاهُ الْفُصُولَ وَالْغَايَاتِ فِي مُعَارَضَةِ السُّورِ وَالْآيَاتِ ، وَسَنَشْبِعُ الْقَوْلَ فِي هَذَا الزَّعْمِ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى مَعْتَقَدِهِ . وَلَيْسَ فِي هَذَا الْكِتَابِ إِلَّا عِظَاتٌ وَنِصَائِحٌ ، وَالْمُرَادُ بِالْغَايَاتِ الْقَوَافِي ؛ لِأَنَّ الْقَافِيَةَ غَايَةُ الْبَيْتِ أَيْ مُنْتَهَاهُ ، وَهُوَ

= وَمَوْحِدٌ ، وَالْقِيَاسُ فِيهَا كَانَتْ قَاوُهُ حَرْفٌ عِلَّةٌ أَنْ يَكُونَ الْمَفْعَلُ مِنْهُ مَكْسُورٌ الْعَيْنَ ، مِثْلُ مَوْعِدٍ وَمُورِدٍ ، وَلَكِنْ جَاءَتْ هَذِهِ شاذَّةً .

موضوع على حروف المعجم ما خلا الألف ؛ لأن فواصله مبنية على أن يكون ما قبل الحرف المعتمد فيها ألف ، ومن المحال أن يجمع بين ألفين . ولكن تجيء الهمزة وقبلها ألف ، مثل العطاء والكساء ، وكذلك الشراب والسراب في الباء ، ثم على هذا الترتيب ، وليست حروفه المبنى عليها مستوية الإعراب ، بل تجيء مختلفة ، وفيها ما يجيء على نسق واحد . وقيل : إنه بدأ فيه قبل رحلته إلى بغداد وأتمه بعد عودته إلى المعرة ، ومقداره مائة كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الكشف . ويتعلق بهذا الكتاب : إقليد الغايات ، والسادن ، وقد مر ذكرها . (٥٩) فضائل أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، كرم الله وجهه . ضمنه بعض فضائله . ذكره ياقوت فقط .

(٦٠) قاضى الحق : يتصل بكتاب الكافي في النحو لأبي جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ . ذكر في ياقوت والكشف .

(٦١) القائف : ذكره صاحب الكشف في حرف الكاف في الكتب ، وسقط من نسخة ياقوت المطبوعة ، إلا أن في كلامه على كتابه المسمى بمنار القائف دلالة على أن له كتاباً بهذا الاسم .

(٦٢) اللامع العريزي ، في شرح شعر المتنبي ، صنّفه للأمير عزيز الدولة ابن تاج الأمراء أبي الدوام ثابت بن ثمال ، مقداره مائة وعشرون كراسة . ذكره ياقوت وصاحب الكشف وابن خلكان وغيرهم ، ومنه نسخة بخزانة لا له لي بالقسطنطينية رقمها (١٨٢٥) .

(٦٣) لزوم ما لا يلزم : هو ديوان كبير مرتب على حروف المعجم ، يذكر كل حرف بوجوه الأربعة : الضمة والفتحة والكسرة والسكون . ومعنى لزوم ما لا يلزم أنه يلتزم قبل الروى حرفاً إذا غير لم يكن مخللاً بالنظم . قال في خطبته :

إنه ذكر فيه ما هو تمجيد لله الذي شرف عن التمجيد ، أو تذكير للناسين ،
وتنبيه للغافلين ، أو تحذير من الدنيا ؛ فإن جاوز المشرط ، فإن الذي جاوز إليه
قول عمرى من المين . وهو أحد كتبه التي تكلموا فيها ، ومنفصل القول فيه
عند الكلام على معتقده وشعره . طبع بالهند سنة ١٣٠٣ وبمصر سنة ١٨٩١
— ١٨٩٥ ميلادية . وكان الأديب الفاضل الشيخ أحمد الفحماوى النابلسى ،
نزىل مصر رحمه الله تعالى ، مشتهرا بكتابة نسخ من هذا الكتاب ،
يتحرى فيها الصحة ، ويطرزها بالحواشى المفيدة ، ثم يبيع النسخة بعشرين
ديناراً مصرياً ، فيتنافس فى اقتنائها أعيان مصر وسراتها ، وعندى منها
نسختان . ووقعت لى نسخة مخطوطة من مختصر له ، اسمه : مختار لزوم ما لا يلزم ،
تنقص أوراقاً من أولها ، ويبتدىء بها فيها من أثناء قافية الباء المضمومة ، ولذهاب
أولها لم أقف على اسم مؤلفها . ولأبى العلاء شرح عليه سماه : راحة اللزوم ، وله
أيضاً : زجر النابح ، وبحر الزجر ، والراحلة . وكلها تتعلق باللزوميات ،
وقد مضى ذكرها .

(٦٤) مبهج الأسرار : لم يذكره ياقوت ، وقال صاحب كشف الظنون :
لأبى العلاء ، ولم يقل المعرى ، واسم الكتاب يدل على أنه لغيره .

(٦٥) مثقال النظم : فى العروض . ذكره ياقوت والسيوطى فى بغية الوعاة .

(٦٦) مجد الأنصار ، فى القوافى . ذكره ياقوت .

(٦٧) المختصر الفتى : يتصل بكتاب محمد بن سعدان ، صنفه لرجل يكنى

أبا الفتح محمد بن على بن أبى هاشم ، وكان أبو هذا الرجل تولى إثبات ما ألفه
أبو العلاء من جميع كتبه ، فألزمه بذلك حقوقاً جمة ، وأيادى كثيرة . كذا
ذكر ياقوت .

(٦٨) معجز أحمد : لم يذكره صاحب الكشف ، ويذهب بعضهم إلى أنه هو اللامع العريزي في شرح شعر المتنبي . ويستفاد من عبارة ابن خلكان أنه غيره ، وأن أبا العلاء اختصر ديوان المتنبي ، وتكلم على غريبه ، وذكر سرقاته وما أخذ عليه في هذا الكتاب . ومن فوائده التي ذكرها فيه ، ونقلها عنه أصحاب البديع ، استنباطه لنوع من البديع سماه « الطاعة والعصيان » عند كلامه على قول المتنبي :

يردّ يدأ عن ثوبها وهو قادر ويعصى الهوى في طيفها وهو راقد
فزعّم أنه أراد أن يقول وهو مستيقظ ليطابق بينه وبين راقد ، ولما عصاه الوزن عدل عنه إلى قادر ، وفيه معنى مستيقظ وزيادة ، فأطاعه التجنيس المقلوب بين قادر وراقد ، وعصته المطابقة بين راقد ومستيقظ . ورد عليه زكي الدين بن أبي الإصبع بأنّ ليس في البيت شيء من ذلك ، لإمكان أن يقول وهو ساهر بدل قادر . انتهى . وجلّ من أتى بهذا النوع من أصحاب البديعيات ، لم تسلم أبياتهم من مثل هذا النقد .

(٦٩) ملقى السبيل : مختصر فيه نظم ونثر ، ذكره ياقوت وصاحب الكشف ، ووقعت لي نسخة منه ، فوجدته في المواضع مرتباً على حروف المعجم ، يذكر في كل حرف فقرات من النثر ، ثم يتبعها بأبيات من القافية ؛ كقوله في حرف الحاء :
إن ابن آدم شحيح ، سوف يمرض من القوم صحيح ، يعصف بعقله الريح ؛ إن ذلك هو التبريح .

يأيها المسك الشحيح	سيمرض السالم الصحيح
ما لك لم تنتفع بعقل	هل عصفت بالعقول ريح
إن شيد القصر في سرور	فبعده يُخفر الضريح

ويطرح الهم بالملأيا من جسمه في الهوى طريق
(٧٠) منار القائف : في تفسير ما جاء من اللفز والغريب في كتابه القائف ،
نذره عشر كراريس . ذكره ياقوت .

(٧١) المواعظ الست : ذكره ياقوت وصاحب الكشف ، ومعنى هذا
اسم أن الفصل الأول منه في خطاب رجل ، والثاني في خطاب اثنين ، والثالث
، خطاب جماعة ، والرابع في خطاب امرأة ، والخامس في خطاب امرأتين ،
السادس في خطاب نسوة . في خمس عشرة كراسة .
(٧٢) نشر شواهد الجهرة : لم يذكر في الكشف ، وقال ياقوت : إنه في
لثة أجزاء ، ولم يتم .

(٧٣) نظم السور : ستة كراريس ، ذكره صاحب الكشف ، وجاء في
سغة ياقوت : نظم السور ، بالمشاة الفوقية ، ولعله تحريف .
(٧٤) وقعة الواعظ : هكذا في نسخة ياقوت ، وقال مصححه : لعله برقة
لواعظ ، ولم يذكره صاحب كشف الظنون .

وله سوى ذلك كتب في العروض والشعر بدأبها ولم تتم . ورأيت بعض
العصريين ينسب إليه كتابا اسمه الفصوص ، ويزعّم أنه سقط منه في الدجلة ،
وهو يحمله إلى أحد الأمراء ببغداد ، فقال فيه بعض الشعراء :
قد غاص في قعر كتاب الفصوص وهو كذا كل ثقل يغوص
فأجابه أبو العلاء بقوله :

عاد إلى معدنه إنما توجد في قعر البحار الفصوص
والعواب أن هذا الكتاب لأبي العلاء صاعد اللغوى البغدادي ، أحد

الراجلين إلى الأندلس ، وبها ألقه ، ووقعت له هذه القصة . وسببها أنه استأذن من المنصور بن أبي عامر في إملاء كتاب بجامع مدينة الزهراء ، يفوق أمالي أبي علي القالي التي أملاها بقرطبة في دولة عبد الرحمن وابنه الحكم ، واشترط أن لا يورد فيه خبراً أورده القالي . فأذن له في ذلك ، فأملى كتاب الفصوص ، ولما أكمله تتبعه أدباء الوقت ، فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم ، ولا خبر ثبت لديهم . وكان صاعد متهماً بالكذب جريئاً عليه ، فأراد المنصور امتحانه ، فعمد إلى كراريس بيض وأمر أن تجلد وتزال جدتها حتى يتوهم فيها القدم ، وترجم عليها كتاب النكت تأليف أبي الغوث الصنعاني ، فترامى إليه صاعد حين رآه ، وجعل يقبله ، ويقول : إى والله ، قرأته بالبلد الفلاني على الشيخ أبي فلان ، فأخذ المنصور من يده خوفاً من أن يفتحه ، وقال : إن كنت قد قرأته كما تزعم ، فعلام يحتوى ؟ فقال : وأبيك لقد بعد عهدي به ، ولا أحفظ الآن منه شيئاً ، ولكنه يحتوى على لغة منشورة لا يشوبها شعر ولا خبر ، فقال له المنصور : أبعده الله مثلك ، فما رأيت أ كذب منك . وأمر بإخراجه وإلقاء كتاب الفصوص في النهر ، فقال فيه بعض الشعراء ، وأجابه صاعد بما تقدم .

قال ابن بسام : وما أظن أحداً يجترئ على مثل هذا ، وإنما صاعد اشترط ألا يأتي إلا بالغريب غير المشهور ، وأعانهم على نفسه بما كان يتنفق به من الكذب . انتهى .

ومن جراته على الكذب نادرته في الخنفشار ، وذلك أن المنصور سأله يوماً عنه ، فقال على البديهة : هو حشيشة يعقد بها الابن ببادية الأعراب ، وفي ذلك يقول شاعرهم :

لقد عقدت محبتها بقلبي كما عقد الحليب الخنفشار

ورواية هذه اللفظة بالخاء المعجمة والفاء هو المشهور في كتب الأدب التاريخ ، وقد رويت بالباء الموحدة في نسختي نفح الطيب المطبوعتين بمصر ، وردت في التي طبعت بأوربا بالخاء المهملة والباء الموحدة ، ورواية البيت فيها :

لقد عُدَّتْ محبَّتُها بقلبي كما عُدَّ الحليبُ بحَبَشَار

إلا أن المصحح ذكر بالحاشية ورودها في بعض النسخ بالخاء المعجمة والباء الموحدة ؛ وفي أخرى بالخاء أيضا والفاء ، وهو الصواب على ما ترجح عندي ، وما عداه محرف عنه . وسببه أن صاحب نفح الطيب تلمسني كما هو معلوم ، وقاعدة المغاربة في الكتابة نقط الفاء بنقطة من تحت ، فيظهر أن نسخة الأصل كتبت بخط مغربي ، وطمس الكاتب رأس الفاء ، فظهرت بصورة الباء لمكان النقطة التحتية ، وتصحيف الخاء المعجمة بالخاء المهملة قريب . وإنما رجحت هذا الوجه ؛ لاشتهاره في سائر الكتب كما ذكرت آنفا . ويجوز أن يكون الصواب في أحد الوجهين الآخرين ، إلا أن مثل هذا لا يثبت إلا بنص ، ولم أقف على نص فيه . والخطب أسهل من أن نطيل فيه الكلام ؛ لأن الظاهر من مفاد القصة أن الكلمة مخترعة . والله أعلم .

فصل في ثروته وزهده

قد عانت مما تقدم أن أبا العلاء كان من بيت ثراء وغنى ، والمتبادر في مثله أن يكون مثيراً كأهله ، ولكنك لو تتبعته بقية أخباره ، وأنعمت النظر في أقواله عن نفسه ، سواء كانت نثراً أو شعراً ، ظهر لك أنه كان على العكس من ذلك . وحسبك تصريحه في إحدى رسائله إلى داعي الدعاة ، بأن الذي له في السنة تيف وعشرون ديناراً يشاركه خادمه في معظمها . وسيمر بك في هذا الفصل شيء من أشعاره المنبئة عن إملاقه وحاجته . والحقيقة المزيلة للبس أنه كان على شيء من الثروة نكب فيه قبل قفوله من بغداد ، فعاش بعد ذلك في كفاف ، بدليل قوله :

أثارني عنكم أمران والدّة لم ألقها وثرأء عاد مسفوتاً^(١)
أحيهما الله عصر البين ثم قضى قبل الإياب إلى الذّخرين أن موتاً
يعنى : أحيأ الله والدتي ومالي وأنا بعيد عنهما ، فلما أزمعت الإياب قضى على الوالدة بالموت ، وعلى المال بالضياع .

على أنه كان على فقره قنوعاً عموفاً كبير النفس ، يضرب في علو الهمة بسهم وافر ، لم يسمع أنه استباح أحداً ، أو مدح طمعاً في نوال ، ومن قوله في خطبة سقط الزند : « ولم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ، ولا مدحت طلباً للشواب ، وإنما كان ذلك على معنى الرياضة ، وامتحان الشّوس^(٢) ، فالحمد لله الذي ستر بغفّة^(٣) من

(١) المسفوت : القليل البركة .

(٢) الشّوس : بالضم الطيعة .

(٣) الغفّة ، بالضم : البلغة من العيش .

قَوَامُ الْعَيْشِ ، وَرَزَقُ شَعْبَةٍ مِنَ الْقَنَاعَةِ أَوْفَتْ عَلَى جَزِيلِ الْوَفْرِ . وَمَنْ غَرَّرَ أَقْوَالَهُ
فِي ذَلِكَ :

وَإِنِّي تَيْمَمْتُ الْعِرَاقَ لَغَيْرِ مَا تَيْمَمَهُ غَيْلَانُ عِنْدَ بِلَالٍ
فَأَصْبَحْتُ مُحْسُودًا بِفَضْلِي وَحَدَهُ عَلَى بَعْدِ أَنْصَارِي وَقَلَّةِ مَالِي
غَيْلَانُ هُوَ ذُو الرِّثْمَةِ ، كَانَ قَصْدُ بِلَالِ بْنِ أَبِي بَرْزَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ
مُسْتَمِيعًا ، وَفِيهِ يَقُولُ :

سَمِعْتُ : النَّاسُ يُنْتَجِعُونَ غَيْثًا فَقُلْتُ لَصَيْدَحَ : انْتَجِعِي بِلَالًا
وَصَيْدَحَ اسْمُ نَاقَتِهِ ، وَالرَّوَايَةُ فِي النَّاسِ بِالرَّفْعِ عَلَى الْحِكَايَةِ ؛ لِأَنَّهُ سَمِعَ مِنْ
يَقُولُ : النَّاسُ يُنْتَجِعُونَ غَيْثًا ، فَحَسِبِي مَا سَمِعَ ، جَزَمَ بِذَلِكَ الْبَهْرَدُ ، وَعَدَّ الْحَرِيرِي
النَّصَبَ مِنَ الْأَوْهَامِ ، وَذَهَبَ غَيْرَهَا إِلَى أَنَّهُ يَجُوزُ .

وَقَالَ أَبُو الْعَلَاءِ يَصِفُ حَالَهُ بِبَغْدَادَ :

تَمَنَّيْتُ أَنْ اخْتَرْتُ حَلَّتْ لِنَشْوَةِ تُجَهِّلُنِي كَيْفَ اطْمَأْنَنْتَ بِي الْحَالُ
فَأَذْهَلُ أَنِّي بِالْعِرَاقِ عَلَى شَفَى رَزَى الْأَمَانِي لَا أَنْيسَ وَلَا مَالُ
مُقَلٍّ مِنَ الْأَهْلِيْنَ يُسْرِ وَأُسْرَةٍ كَفَى حَزَنًا بَيْنَ مُشْتٍ وَإِقْلَالِ
وَكَمْ مَا جَدْتُ فِي سَيْفٍ دَجَلَةً لَمْ أَشِمْ لَهُ بَارِقًا وَالْمَرْءُ كَالْمَرْفِ هَطَالُ (١)
مِنَ الْغَرِّ تَرَاكَ الْهَوَا جَرُّ مُغْرِضٍ عَنِ الْجَهْلِ قَذَافُ الْجَوَاهِرِ مُفْضَالُ
سَيَطْلُبُنِي رَزَقُ الْمَذَى لَوْ طَلَبْتَهُ لِمَا زَادَ ، وَالْدُنْيَا حُظُوظٌ وَإِقْبَالُ
وَقَالَ أَيْضًا :

رَحَلْتُ لَمْ آتِ قِرْوَانًا أَزَاوِلُهُ وَلَا الْمَهْدَبَ أَبْغَى النَّيْلَ تَقْوِيَتُهُ
وَالْمَوْتَ أَحْسَنَ بِالنَّفْسِ الَّتِي أَلْقَتْ عِزَّ الْقَنَاعَةِ عَنْ أَنْ تَسْأَلَ الْقُوَّةَ

(١) السيف ، بالكسر : الساحل .

قرواش كان والياً ببغداد ، والمهذب وزيره . وروى أن المستنصر الفاطمي
خليفة مصر بذل له ما في بيت مال المعرة من الحلال ، فلم يقبل منه شيئاً ، وقال :
لا أطلب الأرزاق والسموئى يفيض على رزقي
إن أعط بعض القوت أعلم أن ذلك فوق حقي

ويعجبني قوله في لزوم ما لا يلزم :

وكأنما الدنيا كتابٌ أَيْتَا رَجَى لها هِيلةٌ فذاك يَسَارُ
وإذا الفتي لحظ الزمان بعينه هان الشقاء عليه والإعسار
وقوله :

نوائب أَلَّتْ في النفوس جرائحها عصى كل آس في البرية سَبْرُهَا
لِي القوت فليَغْمِر سرَ نديب حَظُّهَا من الدرِّ أو يَكْثُر بغانة تَبْرُهَا

سرنديب جزيرة قرب الهند ، فيها مغاوص للؤلؤ ، وتسمى اليوم سيلان ،
وغانة مدينة كبيرة في جنوبي بلاد المغرب ، هي مدخل بلاد التبركا في ياقوت ،
وتطلق اليوم على أرض واسعة في غربي قارة إفريقيا ، تقاسمها الإفرنج بينهم ،
واسمها في لغتهم (Guinée) جينا بالإمالة ، أو : غينا ، والأصل فيه غانة ؛ كما قدمنا ،
والرجوع إليه أولى . ويطلق الإفرنج هذا الاسم أيضا على أول دينار إنجليزي
ضرب من الذهب المستخرج من هذه الجهة ، وأبطل الإنجليز التعامل به من
سنة ١٨١٧ ميلادية ، واستعاضوا عنه بدينارهم المسمى (Souverain) سوفران ،
ومن هذا تعرف سبب تسمية المصريين كل دينار بالجنيه ، وكان الصواب أن
يسموه بالغاني ، إن أرادوا النسبة إلى تلك الجهة ، وإلا فالرجوع إلى الدينار أولى .
وكان شأن أبي العلاء في الزهد والتقشف والإعراض عن الدنيا شأنًا عجبا ،
ولا يذهبن بك الظن فتمتوهم أن للفقر مدخلا في زهده ، فإن من تُبْدَل له الخزان ،

وتُعَرِّض عليه الصلات ، لا تستعصى عليه غاية من الغايات ، ولكنه نظر إلى هذا المتاع الزائل نظر مَنْ لم يُلهه زخرفه عن استطلاع حقيقته ، فصَدَّ عنه وزهد فيه جملةً ، وأخذ نفسه بالرياضة والخشونة ، والإعراض عن العرض الفانى ؛ فكان لباسه القطن ، وفراشه اللَّبَد ، وحصيرُهُ برديَّة ، وطعامه الفول والعَدَس ، وحلاوته التين ، وفيه يقول :

يَقْنَعُنِي بُلْسُنٌ يُمَارَسُ لِي فَإِنْ أَتَنَى حَلَاوَةَ فَبِلْسُنٍ^(١)
فَلَسٌ مَا اخْتَرْتَ إِنْ أَرُوْحَ مِنْ يَسَارِ قَارُوْفٍ عَفَّةٍ وَفَلَسٍ^(٢)

وسنورد مختار شعره في الزهد ، متى وصلنا إلى الكلام على منظومه ، كما أننا سنشبع القول في سبب تجافيه عن أكل الحيوان ، عند الكلام على معتقده .

وكان رحمه الله ، على عوزه ورقة حاله ، بذولاً لما عنده ، غير مانع معروفاً عن مستحق ، يتكلف في ذلك ما استطاع . بَلَغَهُ مَرَّةً أَنْ شَاعِراً يَلْقَبُ بِصَرِيحِ الْبَيْنِ سَاءَتْ بِهِ الْحَالُ ، فَأَنْفَذَ إِلَيْهِ قَدْرًا مِنَ الدَّرَاهِمِ ، وَأَتْبَعَهَا بِقَصِيدَةٍ يَقُولُ فِيهَا :

قَدْ اسْتَحْيَيْتَ مِنْكَ فَلَا تَكِلْنِي إِلَى شَيْءٍ سِوَى عِذْرِ جَمِيلٍ
وَقَدْ أَنْفَذْتَ مَا حَقَّ عَلَيْهِ قَبِيحِ الْهَجْوِ أَوْ شَتْمِ الرَّسُولِ
وَذَاكَ ، عَلَى انْفِرَادِكَ ، قَوْتُ يَوْمٍ إِذَا أَنْفَقْتَ إِنْفَاقَ الْبَخِيلِ
فَكَيْفَ وَأَنْتَ عُلُوِّ السَّجَايَا فَلَيْسَ إِلَى اقْتِصَادِكَ مِنْ سَبِيلٍ
إِلَى أَنْ يَقُولَ :

فَإِنْ يَكْ مَا بَعَثْتُ بِهِ قَلِيلاً فَلَئِنْ حَالَ أَقْلٌ مِنْ الْقَلِيلِ

وحدث للقاضي أبي محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر الفقيه المالكي المشهور

(١) البلسن بالضم : العَدَس ، والبلس بالتحريك : التين .

(٢) اللس : الأكل .

ضيق وشدة ، وهو ببغداد ، فلم ير بُدًا من الرحيل عنها ، وخرج لتشيعه يوم
فَصَلَ جمع من أكابرها ، وطوائف كثيرة من أهلها ، وما فيهم إلا متوجع لفراقه ،
أو آسف على فوات الاستفادة من علمه ، فقال لهم عند الوداع : لو وجدت بين
ظَهْرَانِيكُمْ رغيفين كل غداة وعشيّة ما عدلت عن بلدكم . فلم تحرك مقالته واحداً
منهم ، يتكفل له بما طلب ؛ فسار عنهم قاصداً مصر ، واجتاز بمعة النعمان ، وبها
يومئذ أبو العلاء ، فأضافه واحتفى به ، وفيه يقول :

والمالكى ابن نصر زار في سفر بلادنا فحمدنا النأي والسفرا
إذا تفقه أحيا مالكا جدلاً وينشرُ الملك الضليل إن شعراً (١)

ثم حباه عند رحيله بثلاثين درهما ، وخاطبه معذراً بقوله :

أَيْبَسْتُ عذرى منم أم يخصنى	بما هو حظى من أليم عتاب
قبول الهدايا سُنَّةٌ مستحبة	إذا هى لم تسلك طريق تحاب
فيا ليتنى أهديت خمسين حجة	مضت لى فيها صحى وشبابى
وقلت له فترك ثلاثين أسوداً	متى ما تَكشَّفُ تُؤلفَ غيرُ لباب
إذا أسكت المحتج كل منظر	فعند ابن نصر نجدة بجواب
وما أنا إلا قطرة من سحابة	ولو أننى صَنَّفْتُ ألفَ كتاب
وبين يديه كفر طاب وإنسها	يعيش لفقد الماء عيش ضباب
لعل الذى أنفدت يكفيه ليلة	لإسباغ طهر حان أو لشراب

يقول : لعل هذه الدراهم القليلة ، وإن كانت سوداء غير خالصة الفضة ، تكفى
الشيخ لأن يشتري بها قليلاً من الماء لطهره أو لشربه ؛ فإنه معرج على كفر
طاب ، وهى قليلة الماء ، وأهلها يعيشون بها عيش الضباب ، وإنما خص الضباب

بالذكر ؛ لأنها تصبر على العطش . وبعض الحققين من أهل عصرنا يرى أن
كفر طاب هي البلدة المسماة الآن بإدلب ، وهي قصبة قضاء باسمها ، من لواء حلب .
ولم تزل قليلة الماء . وفيها يقول أبو العلاء في لزومياته :

أرى كفر طاب أعجز الماء حفرها وبالس أغناها الفرات عن الحفر^(١)
كذلك مجرى الرزق ، وادٍ بلا ندى ووادٍ به فيض وآخر ذو جفر
ولما وصل القاضي عبد الوهاب المذكور إلى مصر ، أقيمت عليه الدنيا ،
وانتهالت عليه صلوات الأمراء ، ولكنه لم يتمتع بشيء منها ، بل مات عقب وصوله
من أكلة اشتهاها ، وسمعه يقول وهو يتقلب ويتململ : لا إله إلا الله ، إذا عشنا
متنا . وهو القائل في بغداد :

بغداد دار لأهل المال طيبة والمغاليس دار الضنك والضيق
ظلت حيران أمشي في أزقتها كأنني مصحف في بيت زنديق

(١) بالس كصاحب : بلدة يشط الفرات .

فصل في بقية أخباره

لما دخل أبو العلاء بغداد أقبل عليه عفاؤها وأدباؤها ، معجبين بنطنته ،
وسعة علمه . واختص بصحبته جماعة منهم : كأبي القاسم علي بن المحسن القاضي
التفوشي ، وكحازن دار العلم ، والشريفين الرضي والمرضي ابني أبي أحمد الموسوي ،
وغيرهم . وكان المرتضى شديد الاختصاص به ، وله معه مباحثات ومداعبات .

{ روى أنه حضر مجلسه يوما ، وجرى ذكر المتنبي فتنقصه المرتضى ، وجعل
يتتبع عيوبه ؛ ليقضه له ، وتعصبه عليه . وكان أبو العلاء على عكسه يتعصب
للمتنبي ، ويزعم أنه أشعر المحدثين ، ويفضله على بشار ومن دونه ؛ كأبي نواس
وأبي تمام . فقال : لو لم يكن المتنبي إلا قوله : (لك يا منازل في القلوب منازل)
لكفاه فضلا . فغضب المرتضى ، وأمر به فأخرج من مجلسه ، ثم التفت إلى
من يحضرته ، وقال لهم : أتدرون أي شيء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة ، مع
أن لأبي الطيب ما هو أجود منها ؟ فقالوا : النقيب السيد أعرف ، فقال : أراد
قوله في هذه القصيدة :

وإذا أتت مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

قلت : ومن التلميح المستعذب بهذا البيت ، ما وقع للفتح بن خاقان مع ابن
الصائغ ، وقد ذكره بسوء في كتابه قلائد العقيان ، فر عليه ابن الصائغ يوما وهو
في جماعة ، فضرب بيده على كتفه ، وقال : إنها شهادة يا فتاح . ثم مضى في
سبيله ، فتغير لون الفتاح ، وقال : والله ما بلغت بوصفي له في كتابي عشر ما بلغ
مني بهذه الكلمة !

ويشبه قصة المعري مع المرتضى ما وقع للخالدين مع سيف الدولة ، لما عاتباه في تفضيله المتنبي ، وقالوا : ليختر الأمير ما شاء من قصائده ، حتى ننظم ما هو أجود منها ، فاقترح عليهما أن يعارضا قوله :

إِعِينِيكَ مَا يَلْقَى الْفُؤَادَ وَمَا لِقَى وَالْحُبَّ مَا لَمْ يَبْقَ مَنَى وَمَا بَقِيَ
فلما كررا النظر فيها لم يجداهما من غرر قصائده ، ثم فطنا إلى أن سيف الدولة أراد بهما قوله فيها :

إذا شاء أن يلهو بلحية أحق أراه غباري ثم قال له الحق
فأحجبا عن المعارضة ولم يعاوداه . وفي رواية أن هذه القصة وقعت للسري الرفاء لا الخالدين . وحكى بعضهم ، قال : خرجت على سبيل الفرجة ، فقعدت على الجسر ببغداد ، فأقبلت امرأة من جانب الرصافة تريد الجانب الغربي ، فاستقبلها شاب فقال لها : رحم الله على بن الجهم ، فقالت في الحال : ورحم الله أبا العلاء المعري . ولم يقفا ، ومرا مشرقا ومغربا ، فتتبعت المرأة وقلت لها : أخبريني عافاك الله عما قال لك ، وعما أجبته به ، فقالت : نعم ، رحم الله على بن الجهم ، أراد قوله :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى
وأردت بترحمي على أبي العلاء قوله :

فيسا دارها بالحزن إن مزارها قريب واسكن دون ذلك أهوال
وروي أن أحد الشرفاء سقط منه خاتم في الحرم ، فقال له أحد بني عمه :
لم لم تقف على طلب هذا الخاتم الثمين ؟ فقال له : أأست من أبناء أمير المؤمنين ؟
أراد الأول قول المتنبي :

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع في التراب خاتم

وأراد الثانى قوله من قصيدة أخرى :

كذا الفاطميون الندى فى أكفهم أعزُّ أئمة من خطوط الرواجب ^(١)
يريد : أن الندى ملازم لأكفهم ، كما أن خطوط الرواجب ملازمة لها .
وفى البيت الأول نادرة لأبى العلاء ، وذلك أنه بلغ من ولوعه بالمتنبى أنه
كان إذا ذكر الشعراء يقول : قال أبو نواس كذا ، قال البحتري ، قال أبو تمام ،
فاذا أراد المتنبى قال : قال الشاعر . فقليل له يوماً : لقد أسرفت فى وصفه ، فقال :
أليس هو القائل :

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه
كم يقف الشحيح على خاتمه ؟ يقف عليه أربعين يوماً . فقليل له : ومن أين
علمت ذلك ؟ قال : سليمان بن داود عليهما السلام وقف على طلب الخاتم أربعين
يوماً ، فقليل له : ومن أين علمت أنه بخيل ؟ قال : من قوله تعالى : وهب لى ملكاً
لا ينبغي لأحد من بعدى ، وما كان عليه أن يهب الله لعباده أضعاف ملكه !
ولما بلغ أبا العلاء وفاة أبى أحمد الطاهر أبى الشريفين الرضى والمرضى
سنة ٤٠٣ ، رثاه وهو بالمعرة بقصيدة فائية طويلة ، أجاد فيها كل الإجادة ،
وأنفذها إليهما ، مطلعها :

أودى فليت الحادثات كفاف مال المسيف وعنبر المستاف

ومن غريب قوله فيها يخاطب الغراب :

لا خاب سعيك من خفاف أسحم كسحيم الأسدى أو كخفاف
من شاعر للبين قال قصيدة يرثى الشريف على روى القاف
بنيت على الإبطاء سالمة من الإقواء والإكفاء والإصراف

(١) الرواجب : واحدتها راجبة ، وهى مفاصل الأصابع .

الخُفَافُ : الخفيف ، وسُحَيْمٌ : عبد بنى الحَسَّاحَس ، كان أسود ؛ وأراد
يُخَفِّفُ : خُفَافٌ بِنِ زُدَّةٍ^(١) أحد غربان العرب وشعرائها ، يعنى كأن هذا الغراب
شاعر أسود كهذين الشاعرين ، ينهى لنا الشريف بنعيبه ، ويرثيه بقصيدة قافية ؛
لأنه يقول فى نعيبه : غاق غاق . وهذه القصيدة بنيت على الإيطاء ؛ لأنه يردد هذه
الكلمة فى قوافيها ، إلا أنها سالمة من الإقواء ، وهو الاختلاف بين القوافى بالرفع
والجر ؛ ومن الإكفاء ، وهو المخالفة بينها بالحروف ؛ ومن الإصراف ، وهو
الإقواء بالنصب .

ومن صحب أبا العلاء وأخذ عنه وهو ببغداد القاضى أبو القاسم على بن المحسن
التنوخى المتقدم ذكره ، وكانت بينهما رابطة اتحاد . وحمل إليه مرة جزءاً من
أشعار تنوخ فى الجاهلية ، مما كان جمعه والده أبو على المحسن ، فلما تعجل
أبو العلاء الرحيل عن بغداد تركه عند أبى أحمد عبد السلام ، وسأله رده إلى
أبى القاسم ، وسار عن بغداد ، فخشى أن يكون أغفله ، فكتب يخاطب أبا القاسم
بقصيدة ضمنها أغراضاً ، يقول فيها :

أهدى السلام إلى عبد السلام فما يزال قلبى إليه الدهر ملفوتا
سألته قبل يوم السير مبعثه^(٢) إليك ديوان تيم اللات ماليتاً^(٣)
هذا لتعلم أى ما نهضت إلى قضاء حج فأغفلت المواقيتا

وروى ابن خلكان وابن الوردى فى تاريخيهما ، نقلا عن كتاب للحافظ
أبى طاهر السلفى ، وضعه فى أخبار أبى العلاء ، قال فيه مسنداً عن القاضى أبى الطيب
الطبرى : كتبت إلى أبى العلاء المرمى حين وافى بغداد ، وقد كان نزل فى
سُوقَةٍ غالب :

(١) ندبة بفتح أوله أو ضمه : أم خفاف ، وهو أحد من نسب إلى أمه من الشعراء .
(٢) أى ما تقص .

وما ذات دَرٍ لا يَحِلُّ لحالب تَنَاولُهُ واللحم منها مُحَلَّلٌ
 لمن شاء في الحالين حيًّا ومَيِّتًا وَمَنْ رام شرب الدَّرِّ فهو مُضَلَّلٌ
 إذا طَعَنَتْ في السن فاللحم طَيِّبٌ وآكِلهُ عند الجميع مُعَقَّلٌ
 وخرقاتها للأكل فيها كزازة^(١) فما لحصيف الرأي فيهن مأْكَلٌ
 وما يجتنى معناه إلا مَبْرُزٌ عليم بأسرار القلوب مُحَصِّلٌ
 فاجابني ، وأملى على الرسول في الحال :

جوابان عن هذا السؤال كلاهما صوابٌ وبعض القائلين مضللٌ
 فمن ظنه كَرَمًا فليس بكاذبٍ وَمَنْ ظَنَّهُ نَحْلًا فليس يُجْهَلُ
 لحومهما الأعناب والرُّطْبُ الذي هو الحِلُّ والدَّرُّ الرحيق المُسَلَّسَلُ
 ولكن ثمار النخل وهي غضيضة^(٢) تَمَرٌ^(٣) وَغَضُّ الكَرَمِ يُجْنَى وَيُؤْكَلُ
 يكلفني القاضي الجليل مسائلًا هي النجم قدرًا بل أعز وأطول
 ولو لم أُجِبْ عنها لكنت بجهلها جديرًا ولكن من يَوَدُّكَ مُقْبِلُ
 قال القاضي أبو الطيب : فأجبتُه عنه ، وقلت :

أثار ضميري من يعزّ نظيره من الناس طُرًّا سابغ^(٤) الفضل مَكْمَلُ
 وَمَنْ قلبه كُتِبَ العلوم بأسرها وخاطره في حدة النار مُشْعَلُ
 تساوى له سرّ المعاني وجهرها ومُعْضِلُها باد لديه مُفَصَّلُ
 ولما أثار الحُبَّ قاد^(٥) منيعه أسيرًا بأنواع البيان يُكَبَّلُ

(١) الكزازة : اليبس والانقباض .

(٢) رواية ابن الوردي : رطبية .

(٣) سر يمر بالفتح والضم : ضد يحلو .

(٤) رواية ابن الوردي : سابق .

(٥) رواية ابن الوردي : ولما أثار الخَبَّ فار معينه .

وقربه من كل فهم بكشفه
وأعجب منه نظمه الدُرُّ مسرعا
فَيَخْرُجُ من بحر ويسمو مكانه
فهَنَّاهُ الله الكريم بفضله

فأملى أبو العلاء على الرسول مرتجلا :

ألا أيها القاضي الذي بدهائه
فؤادك معمور من العلم آهِلٌ
فإن كنت بين الناس غير مَمُولٍ
إذا أنت خاطبت الخصوم مجادلا
كأنك من في الشافعي مُحَاطِبٌ
وكيف يُرْسِي علم ابن إدريس دارسا
تفضلت حتى ضاق ذرعى بشكر ما
لأنك في كنه الثريا فصاحة
فَعَذِرِي في أنى أجبتك واثقا
وأخطأت في إنفاذ رقعتك التي
ولكن عداني أن أروم احتفاظها
ومن حقها أن يصبح المسك عطرا
فمن كان في أشعاره متمثلا
تَجَمَّلَتِ الدنيا بأنك فوقها

والقاضي أبو الطيب المذكور كان أديبا ورعا ، عارفا بأصول الفقه وفروعه ،

صنف في الأصول ومذهب الشافعي والخلاف والجدل — كتباً كثيرة . وكان يقول الشعر على طريقة الفقهاء ، وولى القضاء بربيع الكرخ ببغداد ، ولم يزل عليه إلى أن مات سنة خمسين وأربعمائة ، بعد ما عاش مائة سنة وستين ، لم يخل عقله ، ولا تغير فهمه ، يفتي ويستدرك على الفقهاء الخطأ ، ويقضى ، ويحضر المواكب في دار الخلافة . رحمه الله تعالى .

ومن أخبار أبي العلاء قصته مع أسد الدولة صالح بن مرداس صاحب حلب ، وقبوله شفاعته في أهل معرة النعمان بعد أن كاد يبطش بهم سنة ٤١٧ . والسبب في ذلك أن امرأة صاحبة يوم الجمعة بجامع المعرة ، وذكرت أن صاحب الماخور أراد اغتصابها ، فنفر كل من في الجامع وهدموا الماخور ، وأخذوا خشبه ونهبوه ، وكان الأمير أسد الدولة في نواحي صيدا ، فوصل المعرة ، وخيم بظاهرها ، واعتقل من أعيانها سبعين رجلاً برأى وزيره تادرس بن الحسن الأستاذ ، وأوهمه أن في ذلك إقامة للهيبة . فشق على المسلمين هذا الأمر ، حتى دعوا لهؤلاء المعتقلين على منابر آمد وميارقين . وقطع تادرس عليهم ألف دينار ، ففرغ أهل المعرة إلى أبي العلاء ، وسألوه تلافياً في الأمر بالخروج إلى الأمير ، والتوسط لهم عنده . فخرج من أحد أبواب المدينة ، ويده في يد قائده ، وأبصره صالح ، فرأى شيعناً قصيراً يقوده رجل ، فقال : هذا أبو العلاء ، جيئوني به . فلما مثل بين يديه سلم عليه ، ثم قال : « الأمير أطال الله بقاءه كالنهار الماتع ، قاظ وسطه وطاب إبراده ، أو كالسيف القاطع ، لان متنه وخشن حداه ، » خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » . فقال صالح : « لا تثريب عليكم اليوم ، قد وهبت لك المعرة وأهلها » وأمر بتقويض الخيام ورحل . فرجع أبو العلاء وهو يقول :

نَجَّى المَعْرَةَ مِنْ بَرَّائِنِ صَالِحٍ رَبِّ يَعْفِي كُلَّ دَاءٍ مَعْضَلٍ

ما كان لي فيها جناح بعوضة الله ألحفهم جناح تفضل
ورواية اللزوميات في البيت الأول :

نَجَّى العاشر من براثن صالح ربُّ يُفَرِّجُ كُلَّ أمرٍ مُعْضِلٍ
وفيهما أيضاً : ألبسهم ، بدل : ألحفهم . ولم يعلم أبو العلاء أن المال قد قطع عليهم ،
وإلا كان قد سأل فيه أيضاً . وفي هذه القصة يقول وضمنها لزومياته :

تَغَيَّبْتُ في منزل برهمة سَتِيرَ العيوب فقيد الجسد
فلما مضى العُمرُ إلَّا الأقلُّ وحُمَّ لروحي فِرَاقُ الجسد
بُعِثْتُ شفيعاً إلى صالح وذاك من القوم رأى فسَدُ
فيسمع مِنِّي سجعَ الحمام وأسمع منه زئيرَ الأسد
فلا يُعْجِبُنِي هذا التَّفَاقُ فكم نَفَقَتْ مِحْنَةٌ ما كَسَدُ

وصالح هذا هو أسد الدولة أبو علي صالح بن مرداس السكلابي أول ملوك
بنى مرداس بحلب ، كان من عرب البادية ، وكانت له عشيرة وشوكة ، ف قصد
مدينة حلب وانتزعها من مرتضى الدولة بن لؤلؤ ، نائب الظاهر بن الحاكم
الفاطمي خليفة مصر ، وتملكها سنة ٤١٧ . ثم جهز الظاهر الجيوش ووجهها إليه ،
وجرت مقتلة انجلت عن قتل صالح سنة ٤٢٠ ، وقيل سنة ٤١٩ .
وهو الذي عناه أبو العلاء بقوله في لزومياته :

أرى حَلَبًا حازها صالح وجال سِنَانٌ عَلَى جَلَقَا
وحَسَنَانٌ في سَلَفِي طِيءٍ يصرف من عِزِّهِ أَهْلَقَا

وذكر السيوطي في بغية الوعاة في ترجمة نصر بن صدقة القابسي النحوي ،
أنه كان ممن يعاني الأدب ، فقدم مصر وأخذ عن علمائها ، ثم توجه إلى المعرة
فلازم أبا العلاء ، وأخذ عنه ديوانه سقط الزند ، وكتب منه نسخة جيدة ، ورجع

إلى مصر، فقدمها للحاكم وقرأها عليه، فأعجبه نظمه، وأرسل إلى عزيز الدولة الوالى بحلب، أن يحمله إلى مصر، فاعتذر فكف عنه. هذا ما ذكره السيوطى. وفي مقدمة رسالة المعرى تسمى بالفلاحية: أن القابسى المذكور لما رجع إلى مصر بنسخته سقط الزند، أهداها للوزير أبى نصر صدقة بن يوسف الفلاحى، فأعجب بها، واستدعى كاتب الديوان، وأمره أن يكتب إلى عزيز الدولة متولى حلب وأعمالها فى حمل أبى العلاء إلى مصر، لينبئ له دار علم، وسمح بخراج معرة النعمان له فى حياته وبعده، فوصلت الأوامر إلى ديوان الشام بكتب السجل، فكتب، وجهاز على البريد. فلما وقف عليه عزيز الدولة نهض للوقت، حتى دخل معرة النعمان، وقرأ السجل على أبى العلاء، فقال: أمهلنى حتى أكتب جواب السجل إلى مجلس الوزارة، فلعل العفو يساعنى بالمقام فى بلدى؛ إذ لا يمكننى الخروج منه. فأمره الأمير، فأحضر الكاتب للوقت، وأملى عليه هذه الرسالة يعتذر فيها عن عدم الرحيل بعجزه عنه. والوزير الفلاحى المذكور وُزِّرَ للمستنصر سنة ٤٣٦ وعزل سنة ٤٣٩. ولم تسبق له وزارة مدة الحاكم بأمر الله، حتى يمكن الجمع بين الروایتين. وقد تقدم أن المستنصر بذل لأبى العلاء ما يببیت مال المعرة من الحلال، فلم يقبله. فلعل ذلك كان بسعى هذا الوزير، وفيه ما يرجح الرواية الثانية. إلا أن يكون مراد السيوطى مطلقاً كما بمصر، لا الحاكم بأمر الله على الخصوص. وكان هذا الوزير فى أول أمره يهودياً، ثم أسلم. وفيه يقول الحسن بن خاقان الشاعر المصرى:

حجاب وإعجاب وفرط تصلف ومدّ يد نحو العـلا بتكلف

فلو كان هذا من وراء كفاية عذراً ولكن من وراء تخلف

وكان معه أبو سعد التستري اليهودى يدبر الدولة له، فقال بعض الشعراء:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والمالك
يا أهل مصر إني نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك
وممن ارتبط مع أبي العلاء برابطة الود ، وجمعه به آصرة الأدب ؛ الوزير
أبو القاسم الحسين بن علي العالم الأديب المشهور بالوزير المغربي ، صاحب مختصر
إصلاح المنطق ، وأدب الخواص ، والمأثور في ملح الخدور ، وكتاب الإيناس ،
والديوان الشعر . وهو الذي كتب له أبو العلاء رسالته المسماة بالمنيع ، ورسائل
أخرى . ولما فرغ من تأليف مختصر إصلاح المنطق لابن السكيت أنفذ إلى أبي
العلاء نسخة منه ، فقرظها برسالة طويلة سماها بالإغريضية ، أثنى عليه فيها ثناء
جماً ، ووصف المختصر ، وبالح في مدحه . ووقفت في رسائل لأبي العلاء مخطوطة
على كتاب أرسله له هذا الوزير ، يتشوق إليه وإلى أخيه ، ويشتكي من الدهر
وصروفه ، ويسأل الله أن يجمعه بهما ، وضمنه كثيراً من شعره في هذه الأغراض .
ولولا خوف الإطالة لأثبتته هنا .

وكان الوزير المذكور من الدهاة العارفين ، محبا للفتن ، مثيراً للقلاقل ، قتل
الحاكم بأمر الله أباه وعمه وأخويه ، فهرب إلى الرملة ، ثم انتقل إلى الحجاز ، وهو
يفسد نيات الولاة على الحاكم حتى أقلقه . ودخل العراق فاتهمه القادر العباسي
بالسعي في إفساد الدولة العباسية ، فلم يزل منتقلا في البلاد حتى مات بميمافارقين
سنة ٤١٨ على الأصح . ونقل إلى الكوفة بوصية منه ، ودفن في تربة مجاورة
لشهد الإمام كرم الله وجهه ؛ وأوصى أن يكتب على قبره :

كنت في سفرة الغواية والجهل مقيماً فخان مني قدوم
تبليت من كل ماثم فعسى يؤتى بهذا الحديث ذاك القديم

بعد خمس وأربعين لقد ما طلت إلا أن الغريم كريم

ورثاه أبو العلاء بأبيات أثبتتها في لزومياته ، وهي :

ليس يبقى الضرب^(١) الطويل على الأرض ولا ذو العبالة^(٢) الدراحية^(٣)
يا أبا القاسم الوزير ترخلت وخلفتني^(٤) فقال^(٥) رحاية^(٦)
وتركت الكتب الثمينة للناس وما رحت عنهم^(٧) بسحاية^(٨)
ليتني كنت قبل أن تشرب المو ت أصيلا شربته بضحية^(٩)
إن نحتك المنون قبلي ، فإني منتحاهما وإنها منتحاية^(١٠)
أثم دفر تقول بعذك للذا ثق لا طعم لي فأين فحاية^(١١)
إن يخطئ الذنب اليسير حفيظا لك فكم من فضيلة محاية^(١٢)

وكان ابن القارح صاحب الرسالة المشهورة المعرى يؤدب الوزير المغربي في

صباه ، ثم صار يذمه ويعدد معائبه ، حتى قال في هجوه :

لقتبت بالكامل سترأ على نقصك كالباني على الخص
فصرت كالكنف إذا شيدت بيض أعلاهن بالجص
يا عرّة الدنيا بلا غرّة ويا طويس^(١٣) الشؤم والحرص
قتلت أهليك وأنهبت يد ت الله بالموصل تستعصى

(١) الضرب : الخفيف اللحم .

(٢) ذو العبالة : الغليظ ، والدراحية : القصير .

(٣) الثفال بالكسر : الجلد الذي يوضع تحت الرحي .

(٤) سحاية القرطاس : ما سحى منه ، أي أخذ .

(٥) الفحا ويكسر : البذر : وفي القدر : كثير أبازيره .

(٦) طويس : أول من غنى في الإسلام يضرب به المثل في الشؤم ؛ لأنه ولد ليلة مات

رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وفطم يوم مات أبو بكر ، وبلغ يوم مات عمر ، وتزوج يوم قتل عثمان ، وولد له يوم قتل علي .

وبلغ أبا العلاء كلامه فيه فامتعض وتألم . فلما كتب ابن القارح رسالته قال فيها في هذا الخصوص مخاطباً أبا العلاء : « بلغني عن مولاي الشيخ — أدام الله تأييده — أنه قال وقد ذكرتُ له : أعرفه خبراً ، هو الذي هجا أبا القاسم الحسين ابن علي المغربي . فذلك منه أدام الله عزه رائع لي ، خوفاً أن يستشرّ طبعي ، وأن يتصورني بصورة من يضع الكفر موضع الشكر ، وهو بتعريف التنكير أنفع لي عنده ، لجلالة قدره ودينه ونسكه . وأنا أطلعه طلمة ، ليعرف خفّضه ورّفعه ، وفُرَادَاهُ وجمعه » . ثم ساق بعد ذلك نوادر عن هذا الوزير في تهووره ومحبته لافتن ، ونقضه للعهود ، فأجابه أبو العلاء في رسالة الغفران بأن هذا الصديق قد مات ، وأولى بمن يغفر الذنب للحي أن يغفره له وهو ميت .

وكان أبو الخطاب محمد بن علي بن محمد بن إبراهيم الجبلي^(١) شاعراً ، وكان بينه وبين أبي العلاء المعري مشاعرة ، وفيه قال أبو العلاء قصيدته :
غير مجدٍ في ملّتي واعتقادي نوحُ بالكِ ولا ترثمُ شادِ
ومات أبو الخطاب في ذي القعدة سنة ٤٣٩ . كذا ذكر ياقوت في معجم البلدان .

(١) الجبلي : نسبة إلى جبل بفتح الجيم وتشديد الباء وضمةا : بليدة بين النعمانية وواسط ، كما في ياقوت .

شعره

فصل في المكرر في معانيه .

» » سرقاته .

» » مآخذ الشعراء من شعره .

» » مقارنة بعض معانيه بمعاني غيره .

فصل فى المكرر فى معانيه

تكرير المعانى وقع لكثير من الشعراء ، ولم نر أحداً عابهم به ، إلا إذا كان المعنى فى نفسه ساقطاً مردولاً ، يؤاخذ الشاعر عليه ، فتكون مؤاخذته على تكريره وترديده أولى . ومن الشعراء من يكرر الألفاظ فيعمد إلى بيت أو شطر بيت سبق له ، فيعيدده فى قصيدة أخرى ؛ إما بتغيير قافية ، أو بجعل الصدر عجزاً ، أو بالعكس . وهذا النوع يسميه أصحاب البديع بالتفصيل ، فإذا كان مأخوذاً من شعر الغير سموه : إيداعاً ، أو تضميناً ، على اختلاف بينهم فيه . ولم نقصد هنا التكلم عليه ، بل اقتصرنا على ما كرره أبو العلاء من معانيه .

فمنها قوله فى تشبيهه مسامير حلق الدروع بعيون الجراد :

سليمية من كل قتر يحوطها قتر نبت عنه الغوانى العوانس
تخيل أبصار الدبى فسهده ومثف وشى بين ذينك ناعس
كرره فقال :

كان الدبى غرقى بها غير أعين إذا رُدَّ فيها ناظر يستبينها
وكرره فقال :

كأثواب الأراقم مزقتها نخطتها بأعينها الجراد
وكرره أيضاً فقال :

بدلاص كأنها بعض ماء الثماد
حلة الأيم خيطت بعيون الجراد

وكرره فقال :

أنا كل درعى أن حسبت قتيورها وقد أجدبت قيس عيون جراد

وقوله فى تشبيه الدرع بالمبرد :

وما بُرْدَةٌ فى طيها مثل مبرد بعاجزة عن ضم شخص وأوصال

كرره فقال :

مُضَاعَةٌ فى نشرها نهى مُبرِدٍ ولكنها فى الطى تُحَسَّبُ مِبْرَدًا

وقوله :

ذكى القلب يخضبها نجيعاً بما جعل الحرير لها جلالاً

كرره وبالع فيه فقال :

غذاهنَّ محرّ النجيع قوارحاً كما كنَّ يُغْذَيْنَ الضريبَ مهارة

وقوله فى تشبيه فرند السيف بآثار ديب النمل :

ودبت فوقه حمر المنايا ولكن بعد ما مُسِخت نمالاً

كرره فقال :

كأن المنايا جيش ذرّ عرمرم تخذن إلى الأرواح فيه مساراً

وكرره أيضاً فقال :

ما كنت أحسب جفنًا قبل مسكنه فى الجفن يطوى على نار ولا نهر

ولا ظننت صغار النمل يمكنها مشى على اللجج أو سعى على الشعير (١)

وقوله في تشبيهه طحلب الماء باللاثام :

وملثتم بالغلفق الجعد عرست عليه فلم تكشف خفي لثامه
وكرره فقال :

وكم أوردتها عدا قديما يلوح عليه من خز خمار

وقوله :

فالنفس تبغى الحياة جاهدة وفي يمين المليك مقودها

فلا اقتحام الشجاع مهلكها ولا توقى الجبان مخلدُها

كرره فقال :

فكن في كل نائبة جريئا تُصب في الرأي إن خطي الهدان (٢)

وسائل من تنطس في التوقى لأية علة مات الجبان

وقوله :

تمتع أبكار الزمان بأيده وجئنا بوهن بعد ما خرف الدهر

كرره فقال :

كأنما الخير ماء كان وارده أهل العصور فما أبقوا سوى العكر

وقوله :

وكل يريد العيش والعيش حتفه ويستعذب اللذات وهي سمام

(١) السعير : جمع سعير .

(٢) الهدان : الضعيف الجبان .

كرره فقال :

تود البقاء النفس من خيفة الردى وطول بقاء المرء سمٌ مجربٌ

وقوله :

وافقتهم في اختلاف من زمانكم والبدر في الوهن مثل البدر في السحر

كرره فقال :

وما البدر إلا واحد غير أنه يغيب ويأتي بالضياء المجدد
فلا تحسب الأقدار خلقاً كثيرة بجملة من نير متردد

وقوله في رثاء أمه :

مضت وقد اكتملت نخلت أنى رضيع ما بلغت مدى الفطام

وكرره في رثائها أيضاً فقال :

دعا الله أمّا ليت أنى أمامها دُعيت ولو أن الهواجر آصال
مضت وكأني مرّضت وقد ارتقت بي السن حتى شكل فودى أشكال

فصل فى سرقاته

هذا باب لم أقف عليه مجموعا ، فيسهل على تناوله ، واستيفاء الكلام فيه ؛ وإنما أذكر منه ما اتفق لى العشور عليه فى كتب الأدب عند كتابة هذه النبذة ، أو استخرجه الخاطر السكليل أثناء مطالعة ديوانه . وأبدأ بما أخذه من أبى تمام والبحتري وأبى الطيب المتنبي ، ثم أذكر ما أخذه من غيرهم من غير ترتيب . فمن ذلك قول أبى تمام :

والحظَّ يُعطاه غيرُ طالبه ويُحرِّزُ الدرَّ غيرُ محتلبه
تلك بنات الخاض راتعة والعودُ فى كوره وفى قتيبه

أخذه أبو العلاء وأخرجه فى بيت واحد فقال :
هو الحظَّ عَيْرُ الوحش يستاف أنفه خزَامى وأنف العود بالعود يُخزَم

وقال أبو تمام :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكانها وكأنهم أحلام
أخذه أبو العلاء وزاد عليه ، فقال :
فأضحوا حديثا كاللنام وما انقضى فسيان منه يقظة ومنام

وقال أبو عبادة البحتري :

أخجلتني بئدى يديك فسودت ما بيننا تلك اليد البيضاء
وقطعتنى بالوصل حتى إننى متخوف ألا يكون لقاء
أخذها أبو العلاء وضمن معناها فى صدر بيته ، فقال وأجاد :
لو اختصرتم من الإحسان زرتكم والعذب يهجر للإفراط فى الخصر

وهذا البيت من معجزاته ، إلا أنه أورد في غزل القصيدة ، وكان مديحيا
أولى به .

وقال البحتري :

نشوان يطرب للسؤال كأنما غناه مالك طيبي أو معبد
أخذه أبو العلاء وزاد فيه زيادة لا تخفى على الأديب ، فقال :
فما ناح قرى ولاهب عاصف من الريح إلا خاله صوت سائل
فالبحتري جعل ممدوحه يطرب لصوت السائل ، طرب المنتشى من المغنى
المجيد ، وأبو العلاء جعله كلما سمع صوتا من تطريب حمام ، أو إزعاج أرواح ؛ خاله
صوت سائل ، لمزيد اعتنائه بالسؤال ، وولعه بالفوال .

وقال أبو الطيب المتنبي في وصف فرس :

وأصرع أى الوحش قعيقته به وأنزل عنه مثله حين أركب
أخذه أبو العلاء فقال :

أصيل الجَدَّ سابقه تراه على الأئني المكرر مستريحا

وقال أبو الطيب :

يقولون تأثير الكواكب في الورى فما باله تأثيره في الكواكب
أخذه أبو العلاء ، فقال :

من قال إن النِّيرات عوامل فيضد ذلك في علاك يقول
يعلمان فيما دونهن بزعمه ولهن دونك مطلع وأفول

قال شارحه أبو يعقوب النحوى : وقول أبي العلاء أرفع ؛ لأنه جعل الممدوح فوق النجوم . انتهى .

وأقول أنا : إن أبا العلاء إنما شرح المعنى ووضحه ، فبين أن علة عدم تأثير الكواكب في ممدوحه علوه عنها ، وهذا مستفاد من قول المتنبي :

* * * فما باله تأثيره في الكواكب *

لأن المؤثر في العادة أعلى وأقوى من المؤثر فيه ، ففيه معنى بيتي المعرى وزيادة .

* * *

وقال أبو الطيب :

نحن بنو الموتى فما بالنا نعا ف ما لا بُدَّ من شربه
أخذه أبو العلاء فقال :

ما رغبة الحيِّ بأبنائه عما جنى الموت على جدِّه

* * *

وقال أبو الطيب :

وأنا الذى اجتلب المنية طرفه فَمَنْ المطالبُ والقَتيلُ القاتلُ
أخذه أبو العلاء فقال :

وأفة العاشق فى طرفه وأفة الصارم من حده

وكلا البيتين فيه زيادة عن الآخر لا تخفى .

* * *

وقال أبو الطيب :

تمر بك الأبطال كلمى هزيمةً ووجهك وضاح وثغرك باسم
أخذه أبو العلاء ، فقال :

يتهللون طلاقةً وكلومهم ينهلُّ منهم النجيعُ الأحمرُ

وبيته أبلغ في المدح ، لأن غاية المتنبي أن وصف مدوحه بتالله عند هزيمة جيشه ، احتقاراً للأخطار . والمعري جعل مدوحيه يتهللون وهم مصابون يقطر منهم الدم .

وقال أبو الطيب :

يموت راعي الضأن في جهله ميتة جالينوس في طبه
وربما زاد على عمره وزاد في الأمن على سريره
أخذه أبو العلاء ، فقال :

رددت إلى ملك الخلق أمري فلم أسأل متى يقع الكسوف
فكم سلم الجهول من المنايا وعوجل بالحمام الفيلسوف

وقال أبو الطيب :

في رتبة حجب الورى عن نيلها وعلا فسوؤه على الحاجبا
أخذه أبو العلاء فقال :

وقد ستماه سيده علياً وذلك من علو القدر قال
وفي بيت المتنبي زيادة ساعد عليها لقب مدوحه .

وقال أبو الطيب أيضاً :

أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم وأتيناه على الهرم
أخذه أبو العلاء فقال :

تمتع أبكار الزمان بأيده^(١) وجئنا بوهن بعد ما خرف الدهر

وقال أبو الطيب :

وقد يتدرب أنوعه فاني جدا وموصوفاهما متباعدتان
أخذه أبو العلاء ، فقال :

قد يبعد الشيء من شيء يشابهه . إن السماء نظير الماء في الزرق

وقال أبو الطيب :

وإذا خفيت عن لحي فحاضر ولا ترائي منه عينا
أخذه أبو العلاء ، فقال :

وكم عيّن تؤمل أن ترائي وتفقّد عند رؤيتي السواد
يريد : إذا رأيت خفيت عينا ، فكأنها عيت ، وفقدت سوادها .

وقال حمارة بن عقيل :

وما النفس إلا نطفة^(١) في قرارة
إذا لم تُكدر كان صفواً غدورها
أخذه أبو العلاء ، فقال :

واخل كلنا بيدي في ضمائرنا مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

وقال النابغة الذبياني في النعمان :

فإليك شمس ولوك كواكب إذا ظلمت لم يبد منها كوكب

أخذه أبو العلاء ، فقال في قصر نزلته عروس ممدوحة ، فخرج من كان فيه

من حاشيته :

(١) النطفة باضم : الماء العافق نل أو كثر .

كان كالأفق حين همت به الشمس تنادت نجومه بالسير

وقال عدي بن الرعاء :

ليس من مات فاستراح بميت
إنما الميت ميت الأحياء
ألم به أبو الرعاء فقال :

سالم أعدائك مستسلم
والعيش موت لهم مرغم

وقالت ليلى أخت الوليد بن طريف ترثيه :

أيا شجر الخابور مالك مورقا
كأنك لم تجزع على ابن طريف
أخذه أبو الرعاء وتصرف فيه ، فقال :

وما كنت أدري أن مثلك يشكي ولم يتغير للرياح نسيم

وقال عبید بن الأبرص يصف السحاب :

كأن أقرابه لما علا شطبا^(١)
أقرب أبلق يبنى الخيل رماح
أخذه أبو الرعاء فقال :

سرت لها ترمح أفلاها في الجو بلى عربيات

ذكروا أنهم يصفون السحاب بالبلق ، لما فيها من لتمع البروق ؛ وهو قول حسن . والأقرب عندي أنهم يصفونها بذلك ، لأن فيها ما هو رقيق ، وما هو كثيف ، وما هو متقطع ؛ فيخيل لناظرها أنها بقاء .

(١) الأقرب : جمع قرب بالضم أو بضمين ، وهو الحاصرة . وشطب : جبل معروف .

وقال الخطيئة :

يرى البخل لا يُبقي على المرء ماله ويعلم أن المرء غير مخلص
أخذه أبو العلاء فقال :

إذا أوقيت مالا فابذله فما يُبقيه توفير وخزن

وقال الأفوه الأودي :

وقدور كاللؤلؤ راكدة وجفان كالجواني مُترعة
أغار عليه أبو العلاء فقال :

وقدورهم مثل المضاب رواكداً وجفانهم كرحيبة الأفياف^(١)

وقال كثير عزة :

وكنت كذات الظلم لما تحاملت على ظلمها بعد العثار استقلت
أخذه أبو العلاء فقال :

أودعكم يا أهل بغداد والحشا على زفات ما يدين من اللذع
قدائع ضن^(٢) لم يستقل وإنما تحامل من بعد العثار على ظلم

وقال امرؤ القيس :

وقد أغتدى والطيرى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكلا
أخذه أبو العلاء ، وغلا بأن جعله قيداً للريح ، فقال :

(١) الأفياف : جمع فيف ، وهي البرية الواسعة .

(٢) ضنى كرضى ، فهو ضنى وضن : مرض .

وخيلاً لو جرت والريح شأواً ظننا الريح أو ثقها إسارُ

وقال أبو فراس الحمداني :

ونحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

أخذه أبو العلاء ، فقال :

وأصبح واحد الرجلين إما مليكاً في المعاشر أو أبيعلاً

ل بديع الزمان الهمداني :

وكاد يحكيك صوب الغيث منسكباً لو كان طلق الحيتا يطر الذهبا

والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا

أخذ أبو العلاء نصف شطر منه ، وقصر أى تقصير ، فقال :

إذا قيل بحر فهو ملح مكدر وأنت نمير الجود عذب الشماثل

وقال أبو حية النميري :

ولما أبت إلا التواء بودها وتكديرها الشرب الذي كان صافيا

شربنا برنق^(١) من هواها مكدر وكيف يعاف الرنق من كان صاديا

والبيتان في غاية الحسن ، إلا أن أبا العلاء ضمن معناه في بيت ، فقال :

ولما أن تجهمني مرادى جريت مع الزمان كما أرادا

وقال أبو الشيص :

أجد الملامة في هواك لذينة طمعاً لذكرك ، فليكني اللوم

(١) الرنق والريق : السكر .

أخذه أبو العلاء فقال :

لم يبق غير العذل من أسبابهم فأحبُّ من يدنو إلى عذول

وقال أبو الشمقمق في حُرَّاقَة^(١) طاهر بن الحسين :

عجبت لحراقه ابن الحسين كيف تعوم ولا تغرق

وبحران من تحتها واحد وآخر من فوقها مطبق

وأعجب من ذاك عيدانها وقد مَسَّها كيف لا تورق

أخذ أبو العلاء البيت الثالث ، وزاد فيه بأن بينَ علَّةَ عدم إوراق العود

وأحسن التعليل ، فقال :

من كلِّ مَنْ لولا تسقر بأسه لاخضر في يمين يديه الأثمر

وقال آخر في الحمام ، وينسب للمنازى :

شجى قلب الخلى فقليل غنى وبرَّح بالشجى فقليل ناحا

قصر أبو العلاء في أخذه فقال :

فقلت تغنى كيف شئت فإنما غناؤك عندي يا حمامة إغوال

وقالت ولادة بنت المستكفي :

ترقب إذا جنَّ الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكرمَ لاسر

وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلخ وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

وقال أبو العلاء :

منك الصدود ومنى بالصدود رضا من ذا على بهذا في هواك قضي

(١) الحراقَة : سفينة فيها صراحي نيران ، يرمى بها العدو .

بي منك ما لو غدا بالشمس ما طلعت من الكآبة أو بالبرق ما ومّضاً
ولم أدر أيهما أخذ من الآخر ، لاجتماعهما في عصر واحد . ولا يبعد أن يكون
من التوارد ، إلا أن قول ولادة أبلغ !

أما قول أبي العلاء :

منى إليك مع الرياح تحية مشفوعة ومع الوميض رسول
فلا يعد من السرقة في شيء ، وإن سبقه غيره إليه ؛ لأن إرسال التحية مع
النسيم أو البرق من المعاني الشائعة التي تداولتها الشعراء ، ولم تزل تتداولها .
وإنما يظهر التفاضل بينهم فيها بحسن سبكها وإبرازها في اللفظ المقبول ، والتلطف
في تصويرها . ولهذا تركت التنبيه عما وقع في شعره منها ، كما أني لم أعرض لما
خفي ودق من سرقاته ؛ لئلا يمر ناظر عليه من غير تثبيت فينكره ، ويرميني
بالخطأ أو التحامل .

واعلم أن ما ذكرناه عن المعرى في هذا الباب قلما يخلو منه شاعر قديم
أو حديث ، ولسنا بواصلين فيه إلى حد الجزم بأنه تعمد سرقة ؛ إذ قد يعرض
المعنى للشاعر فينظمه ، ولا يمر بخاطره وقت نظمه أنه مسبوق به ، وربما كان
مما لم يقف عليه في شعر غيره . وباب التوارد واسع ، كما وقع لطرفة بن العبد
وامرئ القيس في قوله :

وَقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَى مَطِيئِهِمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسَى وَتَجَمَّلِ
فأتى به طرفة في معلقته مغيراً لقافيته فقط ، فقال : (وَتَجَلَّدِ) بدل (وَتَجَمَّلِ) ،
ووثبت عند الرواة أنه لم يطلع عليه قبل ذلك . وقال علي بن منصور الحلبي المعروف

بابن القارح^(١) : « كان محمد بن وكيع متأدباً ظريفاً ، ويقول الشعر ، وعمل كتاباً في سرقات المتنبي ، وحاف عليه كثيراً . وسألني يوماً أن أخرج معه ، واستصحب مُغَنِّيًا وأمره ألا يغني إلا بشعره ، فغني :

لو كان كل عليل يزدد مثلك حسناً
 لكان كل صحيح يود لو كان مُضَيَّ
 يا أكل الناس حسناً صِلْ أكل الناس حُزْناً
 غَنَيْتَ عني ومالي وجه به عنك أغني

فقلت : أتثقل عليك المؤاخذة ؟ فقال : لا . فقلت : أبيتك مسروقة ؛
 الأول من قول بعضهم :

ولو كان لربص يزبد حسناً كما تزدد أنت على السقام
 لما عيّد المريض إذا وعُدت شكايته من النعم الجسام

والثاني من قول رؤبة :

مَسْلَمٌ^(٢) لا أنساك ما حَيَّيتُ لو أَشْرَبُ السُّلُوانَ ما سَلَيْتُ
 * مالي غني عنك ولو غَنَيْتُ^(٣) *

فقال : والله ما سمعت بهذا ، فقلت : إذا كان الأمر على هذا ، فاعذر المتنبي على مثله ، ولا تبادر إلى الخط عليه ، ولا المؤاخذة له ؛ والمعاني يستدعي بعضها بعضاً . « انتهى .

(١) ابن القارح هذا هو الذي أرسل برسالته المشهورة لأبي العلاء المعري ، فأجاب عليه
 المة الغفران .

(٢) يخاطب مسleme بن عبد الملك .

(٣) رواية ديوان رؤبة : (ما بي غني عنك وإن غنيت) .

ولا بد لنا قبل ختم هذا الباب من ذكر نوع يعده كثيرون من السرقة وليس منها ، كقول الطغرائي :

وذى شَطَاط كصدر الرمح معتقل بمثله غير هَيَّابٍ ولا وَكَلٍ

وقول الحريري في مقامته الرابعة والأربعين من قصيدة بائية :

وذا شَطَاط كصدر الرمح معتقل صادفته بمنى يشكو من الحَدَبِ

قال الصفي : « ومثل هذا لا يعد سرقة ؛ لأن المعنى ليس ببديع ، ولا لفظه

بفطيم^(١) ، ولا الطغرائي بعاجز عن الإتيان بمثله ، بل جرى على لسانه ، ونسى

أن هذا إغْيَرَه ؛ لعدم الاحتفال بأمره إذ هو ليس بأمر كبير ، وهذا كثير

الوقوع للناس ، لا يكاد يسلم الفحول منه . » . انتهى كلامه .

وقال التنوخي في زهر الربيع : « ومما يعد سرقة وليس بها ، اشتراك اللفظ

المتعارف ، كقول عنتره :

وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيل عليها الأسد تهتصر اهتصارا

وقالت الخنساء :

وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيل فدارت بين كبشها راحاها »

انتهى .

قلت : وتحقيق المقام أن الكلام المأخوذ يشترط فيه ألا يكون ذا معنى كبير

أو لفظ بالغ حداً ما من الرشاقة ، فإذا أدبجه الشاعر في بيته جاء به غير مقصود

لذاته ، بل يجعله كالتوطئة لمعنى آخر مقصود له ، يبنى البيت عليه . ويظهر لك ذلك

فيما استشهد به الصفي والتنوخي ، وهو كثير في شعر العرب والمُحَدِّثِينَ ، وقد

وقفت منه على جملة صالحة ، لو جمعت لجاءت رسالة لطيفة ، كقول الراعي التميمي :

فتى يشتري حسن الثناء بماله إذا ما اشترى الخزاة بالمجد بهس
وهو مثل قول الأبيرد :

فتى يشتري حسن الثناء بماله إذا السنة الشهباء^(١) أعوزها القَطْرُ
وتبعهما أبو نواس فقال :

فتى يشتري حسن الثناء بماله ويعلم أن الدائرات تدور
وقول دريد بن الصَّمة :

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشداً إلا ضجى الغد
وهو مثل قول المتلمس :

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى ولا أمر للمعصيّ إلا مُضَيِّعُ
وفى هذا القدر كفاية . والكلام فى السرقات الشعرية وأنواعها ، واستيعاب
ما قيل فيها ، لا يتسع له مثل هذا المختصر ؛ فإذا مَنَّ الله بتوفيقه ، وكان فى العمر
مهلة ، وضعنا فيها رسالة تستقل بجمع شتاتها ، وتفصيل ما أجمل منها .
ومن غريب ما وقفت عليه من ملاحظاتهم ، ما رواه على بن العباس
النوبختي ، قال : قال لى البحتري : أتدرى من أين أخذ الحسن^(٢) قوله :
ولم أذر مَنْ هم غير ما شهدت به بشرق سابط الديار البساس
عمت : لا ، فقال : من قول أبي خراش :

ولم أذر مَنْ ألقى عليه رداءهُ ولكنه قد سُلَّ عن ماجدٍ مخضٍ
فقلت : المعنى يختلف ، فقال : إنا نرى حذو الكلام واحداً وإن اختلف
المعنى . انتهى .

(١) السنة الشهباء : السكتيرة الثلج الجدية ، والشهباء أمثل من البيضاء ، والحجاء أشد
من البيضاء . وسنة غبراء : لا مطر فيها .
(٢) الحسن هو أبو نواس .

قلت : إذا كان مراد الباحثى مجرد البيان ، فقد لاحظ ملاحظة دقيقة ،
وإذا كان قصده الخط من أبي نواس والنمى عليه ، فقد لعمري ركب متن
عشواء ، وتخبط فى ظلماء ؛ فإن احتذاء كلام العرب مطلوب فى البلاغة ، وما
حث العلماء على إكثار النظر فى أشعارها واستظهارها إلا توصلا إلى ذلك .
ولولا محاولته ما صبرنا على الغدائر المستشزرات ، والقنو المتعشك ؛ بل لو لم
يصقل الباحثى شعره بقلل المسحة العربية ، ما كانت له الديباجة الغريبة التى
انفرد بها بين معاصريه ، وبذ بها أهل طبقتة . والله أعلم .

فصل فى مأخذ الشعراء من شعره

القول فى هذا الباب كالقول فى سابقه ؛ فلهذا تقتصر على ذكر ما حضر منه ، دون استيعاب سائر . فنه قول أبى العلاء :

لا تطأبن بألة لك رفعة قلم البليغ بغير حظ مغزل
سكن السماء كان السماء كلاها هذا له رمح وهذا أعزل
أخذه أبو إسحق الغزى ، فقال :
والحسن والقبح قد تحويهما صفة شأن البياض وزان الشيب والشنبا
ظُلُبَا الْمُخَارَفِ^(١) أقلام مكسرة رءوسهن وأقلام السعيد ظُلُبَا

وقال أبو العلاء يصف خيلا :
ولما لم يسابقهن شىء من الحيوان سابقن الظلالا
أخذه ابن حمدى فقال وأجاد :
ويكاد يخرج سرعة من ظله لو كان يرغب فى فراق رفيق

وقال أبو العلاء :
إذا اشتاقت الخيل المناهل أعرضت عن الماء فاشتاقت إليها المناهل
أخذه الطعراوى فقال :
ونفس بأعقاب الأمور بصيرة ها من طلاع الغيب حاد وقائد
وتأنف أن يشفى الزلال غليلها إذا هى لم تشتق إليها الموارد

(١) يقال رجل مخارف بالمعجمة ومخارف بالمهملة ويفتح الراء فيهما ، أى محدود ممنوع .

وقال أبو العلاء :

وما ازدهيت وأثواب الصبا جُدد فكيف أزهى بثوب من صبا خلق
أخذه الطغرائي أيضاً فقال :

لم أرتض العيش والأيام مقبلة فكيف أرضى وقد ولت على عجل

وقال أبو العلاء :

وافقتهم في اختلاف من زمانكم والبدر في الوهن مثل البدر في السحر
أخذه الطغرائي فقال :

مجدى أخيراً ومجدى أولاً شرع والشمس راد الضحى كالشمس في الطفل

قال الصفدي : ولكن قول المعري ألطف عبارة ، وأحسن شارة وإشارة ؛

لأن الطغرائي أغرب في لفظي راد والطفل ، وعذوبة الألفاظ أمر مهم في البلاغة .

انتهى . وقد ناقشه بدر الدين الدماميني في « نزول الغيث » بما لا يخلو إirاده من

فائدة ، ونص عبارته : « أقول : الإغراب في اللفظ ، هو الإتيان به غريباً ، وقد

نص بعض الأئمة على أن الغرابة كون الكلمة وحشية غير ظاهرة المعنى ، ولا مأنوسة

الاستعمال ؛ فمنه ما يحتاج في معرفته إلى أن ينقر ويبحث عنه في كتب اللغة

المبسوطة ، ثم الغريب منه حسن ، وهو الذي لا يعاب استعماله عند العرب ؛ لأنه

لم يكن وحشياً عندهم ، مثل اشمخره واقطر ، ومنه قبيح يعاب استعماله مطلقاً ،

ويسمى الوحشى الخليط ؛ وهو أن يكون ، مع كونه غريب الاستعمال ، ثقيلاً على

السمع ، كريهاً في الذوق ، ويسمى المتوعر أيضاً ، مثل اطلعنم الأمر . وعلى كل تقدير

فلا نسلم أن راد والطفل من الغرابة في شيء ، كما ادعاه الصفدي . وفي قوله : وعذوبة

الألفاظ أمر مهم في البلاغة ، قرينة دالة على أنه أراد أن الراد والطفل من الغريب

المستكره في الذوق ؛ المسمى « متوعر » وظاهر أن ذلك خطأ نشأ من سوء الذوق ،

وعدم المعرفة بكلام القوم ، والإعراض عن التدبر لاصطلاحهم . انتهى كلامه .

وقال أبو العلاء :

وأغدو ولو أن الصباح صوارم وأسرى ولو أن الظلام جحافل
أخذه عفيف الدين التلمساني فقال :

أسير ولو أن الصباح مواكب وأسرى ولو أن الظلام قتسام

وقال أبو العلاء في سيف :

ودبت فوقه حُر المنايا ولكن بعد ما مُسخت نمالا
أخذه الوزير أبو محمد عبد الغفور فقال :

تريه المنايا الحمر فيه وجوهنا مماثلة الأرواح في خِلقة الذرّ

وقال أبو العلاء :

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر
أخذه التهامي فقال :

لم أخف إلا للعلو وإنما تُخطئ الشهاب لعلوه الأبصارُ

وقال أبو العلاء :

وفضل الشمس في الأيام باق وإن مدّت من الكبر اللعابا
أخذه ابن سناء الملك ، فقال من قصيدة يهجو بها الشمس :

أنت عجوز لم تبرزت لي وقد بدا منك لعاب يسيل

وقال أبو العلاء :

خفف الوطاء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

أخذه مهيار الديلمي فقال :

رويدا بأخفاف المطى فإنما تداس جباه في الثرى وخذود

وقال أبو العلاء فأجاد :

الموقدون بنجد نار بادية لا يحضرون وقد العز في الحضر
إذا همى القطر شبتها عبيدهم تحت الغمام للسايرين بالقطر
أى إذا أطفأ المطر نارهم شبتها عبيدهم بالقطر ، وهو العود ليهتدى السارى
برأئحته . قال الصفدى : وعليه اعتمد ابن عباد في قوله ، على أنه ما فارق المعنى ،
ولا خالف المعنى ؛ وهو :

الكثيرين من الكبراء^(١) بنارهم لا يوقدون بغيره للسايرى

وقال أبو العلاء :

سألن فقلت مقصدنا سعيد فكان اسم الأمير لهن فالأ
أخذه عصرينا سليم رحى بك رحمه الله ، فقال فى محمد شريف باشا وزير مصر :
يقول القوم مطلبكم عزيز فقلت نعم ومقصدنا شريف

وقال أبو العلاء :

تحية كسرى فى السناء وتبع لربك لا أرضى تحية أربع
أخذه أحمد شوقى بك ، فقال فى مدح السلطان عبد الحميد :
سلام الله لا أرضى سلامى فكل تحية دون المقام

(١) الكبراء ككساء : عود البخور ، أو ضرب منه .

فصل فى مقارنة بعض معانيه بمعانى غيره

قال أبو العلاء :

جهلٌ بمثلِكَ أن يزور بلادنا يختال بين أساور وخلاخل
أو ما رأيت الليل يلقى شهبه حتى يجاوزها بحلة عاطل

وقال الوزير ابن زيدون :

قعيدك أنى زرت نورك واضح وعطرك نمام وحليكَ مرجف
هبيكَ اعتررت^(١) الحى واشيك هاجم وفرعك غريب وليلك أغضف^(٢)
فكيف اعتسفت الهول خطوك مدمج وردفك رجراج وخصرك مُحْطَفٌ^(٣)

أقول : مدار المعنى فى الشعرين على التعجب من مخاطرة هذه المعشوقة فى زيارة صاحبها . فتناوله كلا الشاعرين ، وتلاعب به ، فأبرزه فى الصورة التى شاء له اقتداره إبرازه فيها ؛ وقد أجاد كل منهما فيما حاوله ، وتساويا فى الإحسان ، فلا أرى للترجيح مدخلا بينهما . ويلوح لى أن كليهما اعتمد فى توليد معناه على قول أبى الطيب :

قلق المليحة وهى مسك هتكها ومسيرها بالليل وهى ذُكاء
ولا يظهر ما قلته إلا بزيادة التدقيق ، وإطالة التأمل .

وقال أبو العلاء :

آلَى أميرك لا يسرى الخيال لنا إذا هجمنا فقد أسرى وما علماً
وكم تَمَنَّتْ رجال فيك مُغْضَبَةٌ أن يبصروه فلم يظهر لهم سَقَمًا

(١) المتر : الزائر .

(٢) الأغضف : المظلم .

(٣) المحطف : المنطوى .

وقال ماني الموسوس وقد سأله محمد بن طاهر إجازة قول الشاعر :
حجبوها عن الرياح لأنى قلت ياريح بلّغيتها السلام
لورضوا بالحجاب كان ولكن منعوها يوم الرياح الكلاما
فقال :

فتنفست ثم قلت لطيفي وَيَكْ لو زرت طيفها إماما
حيّتها بالسلام سرًّا وإلا منعوها لشقوتي أن تناما
أقول : خلاصة المعنى المبالغة في الحجب عليها . فادعى أبو العلاء أن وليَّ
أمرها بالغ في حجبها ، حتى حلف على خيالها ألا يزور حبيبها ، ولكن الخيال
غافله وزاره ، واضناه في حبه نحل ، نخفي على مَنْ يترصد رؤيته . وقصّر ماني فلم
تصل يده إلى الخيال . وبيتاه على ما فيهما من حسن التخيل وعذوبة الألفاظ
ينحطّان عن بيتي أبي العلاء .

وقال أبو العلاء :
ذكرت بها قِطْعاً من الليل وافياً مضى كمضى السهم أقصّر من قطع
وقال آخر :

ظلالنا عند دار أبي نعيم بيوم مثل سائلة الذباب
وقال آخر :

ويوم كإبهام القطاة مزين إلى صباه غالب لي ياطله
فأبو العلاء شبه الليل في قصره بالقطع ، وهو النصل الصغير . والثاني شبه
يومه في قصره بعنق الذباب . والثالث شبهه بإبهام القطاة . قال أبو يعقوب
الذحوى : وهذا أشد مبالغة من قول أبي العلاء ، إلا أنه أغرب في الصنعة ، من
حيث إنه ذكر قطع الليل وقطع السهم ، جاءلا مضي الليل كمضى السهم . اهـ .

معتقده

فصل في اختلافهم فيه .

» » معتقده في الله .

» » معتقده في النبوات والرسول .

فصل في اختلافهم فيه

لم يختلف الناس في رجل اختلافهم في أبي العلاء ، ولا تراوحوا بشخص بين الكفر والإيمان تراوحهم به . فلا غرو إذا قضى مثل هذا التناقض على الباحث في أمره ألا يتلقى كل ما قيل عنه بالقبول ، وأن يجنح إلى مقارنة ما نطق به بما نقل عنه ؛ توصلاً إلى حكم بات فيه ؛ إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وقد تأملت المختلفين فيه ، فوجدتهم على ثلاثة أقسام :

فريق متزندقون ، يُكفّرُونَهُ ويحبّونه لكفره ، ومنهم متفرنجة هذا العصر ؛ أو مؤمنون يبغضونه لذلك .

وفريق يذهبون إلى صحة إيمانه ، وربما تغالوا فألحقوه بالأولياء المواصلين ، وروّوا له الكرامات .

وآخرون متحيرون أمسكوا عنه ، ووكّلوا أمره خالقه .

وأنا بادئ بذكر أقوالهم فيه ، ثم معقبها بما ثبت من أقواله ؛ مقسمة إلى فصول ، كما فعلت بأخباره . فأقول :

ذكر غير واحد أنه كان متهماً في دينه ، وأنه اجتاز باللاذقية ونزل ديراً كان به راهب له علم بأقاويل الفلاسفة ، فسمع كلامه ، فحصل له بذلك شكوك . واستدلوا أيضاً على إلحاده بتجافيه عن أكل الحيوان خساً وأربعين سنة ، قالوا : وهذا من اعتقاد الحكماء المتقدمين ؛ لأنهم يرون في ذبح الحيوان تعذيباً له . وسيأتي الكلام على ذلك في فصل مستقل . ونقلوا عن تلميذه أبي زكريا التبريزي أنه قال : قال لي المعري مرة : ما الذي تعتقد ؟ فقلت في نفسي : اليوم أقف على اعتقاده . فقلت له : ما أنا إلا شاكٌّ . فقال : وهكذا شيخك . وقال في حقه

الباخرزى فى دُمِيَّة القصر : « ضرير ماله فى أنواع الأدب ضريب ، ومكفوف فى قميص الفضل ملفوف ، ومحجوب خصمه الألد محجوج . وقد طال فى ظلال الإسلام أناؤه ، ولكن ربما يترشح بالإلحاد إنأؤه ؛ وعندنا خبر بصره ، والله أعلم ببصيرته ، والمطلع على سريره ؛ وإنما تحدثت الألسن بإساءته ، ككتابه الذى زعموا أنه عارض به القرآن ، وعنوانه بالفصول والغايات ، ومحاذاة السور والآيات ، وأظهر من نفسه تلك الخيانة ، وجذت تلك الهوسات كما يُجذ العَيْرُ الصليانة ، حتى قال فيه القاضى أبو جعفر قصيدة أولها :

كَلْبٌ عَوَى بِمَعْرِةِ النِّعْمَانِ لَمَّا خَلَا عَنْ رِبْقَةِ الْإِيمَانِ
أَمْعَرَةَ النِّعْمَانِ مَا أُنْجِبَتْ إِذْ أَخْرَجْتَ مِنْكَ مَعْرِةَ الْعَمِيَانِ »

انتهى .

وممن حكم بزندقته شمس الدين الذهبى ، وأطال فى ترجمته ، وذكر له فيها قبائح . قال الصفدى : وأظن الحافظ السَّلفِيَّ قال إنه تاب وأناب . وتحامل عليه أبو الفداء فى تاريخه ، وغضّ منه كثيراً ؛ حتى اضطر ابن الوردى لارد عليه . وفى السكوكب الثاقب أن القاضى المنازى دخل عليه فذكر ما يسمعه من الطعن فيه ، ثم قال : مالى وللناس ، وقد تركت لهم دينيهم ، فقال المنازى : وأخراهم أيضاً ، فقال : يا قاضى ! وأخراهم أيضاً . وجعل يكررها . وفى هذه الرواية تحامل من المؤلف ؛ فقد رواها ابن خلكان فى ترجمة المنازى على أنه قال له : والآخرة أيضاً ، وجعل يكررها ، ويتألم لذلك ، وأطرق ، فلم يكلمه إلى أن قام .

ونقل ياقوت عن رسالة الغفران أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما أجلي أهل الذمة عن جزيرة العرب شق ذلك على الجالين ، فيقال : إن رجلاً من يهود خيبر ، يعرف بسمير بن أدكن ، قال فى ذلك :

يصول أبو حفص علينا بِدِرَّةٍ رُوَيْدَكَ ؛ إِنَّ المرءَ يطفو ويرسب
 كأنك لم تتبع حُـوْلةَ مَاقُطٍ لتشبع ؛ إن الزاد شيء محجب
 فلو كان موسى صادقاً ما ظهر ثمُ علينا ؛ ولكن دولة ثم تذهب
 ونحن سبقناكم إلى المين فاعرفوا لنا رتبة البادي الذي هو أكذب
 مشيتم على آثارنا في طريقنا وبغيتكم في أن تسودوا وترهبوا
 ثم قال ياقوت : وهذا يشبه أن يكون شعره ، قد نحله هذا اليهودي ؛ أو أن
 إirاده لمثل هذا ، واستلذاذه به ، من أمارات سوء عقيدته ، وقبح مذهبه . انتهى .
 والعجب من ياقوت ، كيف يزعم هذا الزعم ، ومن أين أتى له أن هذه الأبيات
 من شعره ، أو أنه أوردھا استلذاذاً بها ، وهو إنما جاء بها في أثناء كلامه على
 الزنادقة وتقبيح أعمالهم . وآخر أن يكون إirاده لها في عرض إنكاره عليهم ،
 من أبين الأدلة على حسن عقيدته . وليست رسالة الغفران ببعيدة على من يريد
 تحقيق ذلك .

وسئل فتح الدين بن سيد الناس : ما كان رأى الشيخ تقي الدين بن
 دقيق العيد فيه ، فقال : كان يقول : هو في حيرة . فقال الصفدى : وهذا أحسن
 ما يقال في أمره ؛ لأن في كلامه تناقضاً كثيراً . وإلى الله ترجع الأمور .
 هذا ما وقفت عليه من كلامهم في سوء عقيدته ، إلا قليلاً منه سيرد عليك
 فيما يأتى من الفصول .

ونقلوا عن رسالة ابن العديم أنه قال : إني اعتبرت من ذم أبي العلاء ومن
 مدحه ، فوجدت كل من ذمه لم يره ولا صحبه ، ووجدت كل من لقيه هو
 المادح له .

وقال ابن الوردي بعد ما أورد مراسلاته مع القاضي أبي الطيب الطبري التي

سراً ذكرها في أخباره : « وشهادة أبي الطيب في الشيخ مقدمة على شهادة الغير وحسن الظن خصوصاً بالعلماء قد دل عليه القرآن والحديث ، وهو لا يأتي إلا بخير . وكان شيخنا عيسى حسن العقيدة فيه ؛ واعتراف الطبري بمدحه يكفيه .

شهادة الطبري الحبر كافية أبا العلاء فقل ما شئت أو قدر
من أغمد السيف عنه كان في دعة ومن نضى السيف قابلناه بالطبر
انتهى كلامه . وقوله : قابلناه بالطبر فيه تورية ، والطبر هو الطبرزين
معرب ، ومعناه : فأس السرج ؛ لأن فرسان العجم كانت تحمله معها تقاتل به ،
ويقال له عندهم التبر . كذا ذكر المحي في « قصد السبيل ؛ فيما في اللغة العربية
من الدخيل » .

ونقلوا أيضاً عن رسالة ابن العديم المذكورة أنه قال : قرأت بخط أبي اليسر
شاكر المعري في ذكره ، وكان رضى الله عنه يرمى من أهل الحسد له بالتعطيل ،
ويعمل تلاميذه وغيرهم على لسانه الأشعار ، يضمنونها أقاويل الملحدة ؛ قصداً
لإهلاكه ، وإشاراً لإتلاف نفسه ، فقال رضى الله عنه :

حاول إهوانى قوم فما واجهتهم إلا بإهوان
وحرشونى بسعائياتهم فغيروا نية إخوانى
لو استطاعوا لوشوا بى إلى السمريخ فى الشهب . وكيوان
وقال أيضاً :

غريت بدعى أمةً وبمحمد خالفها غريت
وعبدت ربى ما استطعت ومن بريته بريت
وفرتنى الجهال حا سدة على وما فريت

سعروا على فلم أحسن وعندهم أنى هريت
قال الصفدى : « أما الموضوع على لسانه ، فلعله لا يخفى على من له لب .
وأما الأشياء التى دوتها ، وقال بها فى لزوم مالا يلزم ، وفى استغفر واستغفرى ،
فما فيه حيلة . وهو كثير ، فيه ما فيه من القول بالتعطيل والاستخفاف بالنبوات .
ويحتمل أنه ارعوى وتاب بعد ذلك كله . وحكى لى عن الشيخ كمال الدين
ابن الزملى أنه قال فى حقّه : هو جوهرة جاءت إلى الوجود وذهبت » .
اتهى كلام الصفدى . قلت : أما استغفر واستغفرى فلم أقف عليه ؛ فإن كان
ما فيه يشبه ما فى لزوم مالا يلزم ، فسيرد عليك ما يزيل الشك فيه .
وقال ابن الوردى فى تاريخه : « وأنا كنت أتعصب له لكونه من المعرة ،
ثم وقفت له على كتاب استغفر واستغفرى فأبغضته ، وازددت عنه نفرة ،
ونظرت له فى كتاب لزوم مالا يلزم ، فرأيت التبرى منه أحزم ؛ فإن هذين
الكتابين يدلان على أنه كان لما نظمهما عالماً حائراً ، ومذبذباً نافراً ، يقرّ فيهما
أن الحق قد خفى عليه ، ويودّ لو ظفر باليقين فأخذه بكلتا يديه ؛ كما قال فى
مرثية أبيه :

طلبت يقيناً من جهينة عنهم ولم تخبرينى يا جهين سوى الظن
فإن تعهدينى لأزال مسائلا فإنى لم أعط الصحيح فأستغنى
ثم وقفت له على كتاب « ضوء السقط » الذى أملاه على الشيخ أبى عبد الله
محمد بن محمد بن عبد الله الأصبهاني ، الذى لازم الشيخ إلى أن مات ، ثم أقام
بجلب ، يروى عنه كتبه ، فكان هذا الكتاب عندى مصلحاً لقصاده ، موضحاً
لرجوعه إلى الحق وصحة اعتقاده ؛ فإنه كتاب يحكم بصحة إسلامه مؤلاً ، ويتلوم
وقف عليه بعد كتبه المتقدمة (والآخرة خير لك من الأولى) ؛ فلقد ضمن هذا

الكتاب ما يثلج الصدر ، ويلذ السمع ، ويقر العين ، ويسر القلب ، ويطلق اليد ، ويثبت القدم ؛ من تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم خير بريته ، والتقرب إلى الله بمدائح الأشراف من ذريته ، وتبجيل الصحابة ، والرضا عنهم ، والأدب عند ذكر ما يتعلق منهم ، وإيراد محاسن من التفسير ، والإقرار بالبعث والإشفاق من اليوم العسير ، وتضليل من أنكر المعاد ، والترغيب في أذكاء الله والأوراد ، والخضوع للشرعية الحمدية وتعظيمها . وهو خاتمة كتبه ، والأعمال بخواتيمها . وقد يعذر من ذمّه ، واستحل شتمه ، فانه عوّل على مبادئ أمره ، وأوسط شعره ؛ ويعذر من أحبه ، وحرّم سبّه ، فانه اطلع على صلاح سرّه ، وما صار إليه في آخر عمره ؛ من الإنابة التي كان أهلها ، والتوبة التي تجبّ ماقبلها . وكان يقول رحمه الله : أنا شيخ مكذوب عليه . » . انتهى كلامه بنده .

قلت : وليس في لزوم ما لا يلزم ما يصل بالإنسان إلى حد التبرى منه ، كما ذكر الشيخ ، والبيتان اللذان رواهما من مرثية أبيه لا يدلان على ما ذهب إليه ، وإنما مراده أن علم الغيب محجوب عنه ، فلا يدري عن أبيه : أهو في شقاء أم نعيم ، وهما مثل قوله من هذه القصيدة :

جَهَلْنَا قَلْمَ نَعْلَمَ عَلَى الْحَرْصِ مَا الَّذِي يُرَادُ بِنَا وَالْعَلْمَ لَمْ يَزَلْ ذِي الْمَنْ
قال شارحه أبو يعقوب النحوي : « وهذا على معنى أن أمر السعادة والشقاوة مطوى عن العباد ، وأن الأمور كلها بمشيئة الله تعالى ، وهي مستورة ؛ ولهذا كره السلف أن يقول القائل : أنا مؤمن حقاً ، بل أنا مؤمن إن شاء الله تعالى ؛ لا على معنى الشك في الإيمان والاعتقاد ، بل على معنى الخوف من سوء العاقبة ، وخفاء علم الله تعالى في ذلك ، وانطواء أمر الخاتمة » . انتهى .

وذكر ابن الوردي في تاريخه أيضاً : أن حساده أغروا به وزير حلب ، فجهز

حضاره خمسين فارساً ليقتله ، فأنزلهم أبو العلاء في مجلس له بالمعرة ، فاجتمع
رعيه إليه ، وتألموا لذلك ، فقال : إن لي ربا يمنعي ، ثم قال كلاماً منه ما لا يفهم ،
ال : الضيوف ، الضيوف ! الوزير ، الوزير ! فوقع المجلس على الخمسين فارساً فأتوا ،
وقع الحمام على الوزير بحلب فأت : فمن الناس من زعم أنه قتلهم بدعائه وتمجده ،
نهم من زعم أنه قتلهم بسحره ورصده . وهذه القصة رواها صاحب السكوك
أقرب بزيادة تفصيل ، فذكر عن الغزالي أنه قال حدثني يوسف بن علي بأرض
ركار ، قال : دخلت معرة النعمان ، وقد وشى وزير محمود بن صالح صاحب حلب
يه بأن المعري زنديق لا يرى إفساد الصور ، ويزعم أن الرسالة تحصل بصفاء
مقل ، فأمر محمود بحمله إليه من المعرة ، وبعث خمسين فارساً ليحملوه ، فأنزلهم
و العلاء دار الضيافة ، فدخل عليه عمه مسلم بن سليمان ، وقال : يا ابن أخي قد
أت بنا هذه الحادثة ، والمالك محمود يطلبك ، فإن منعناك عجزنا ، وإن أسلمناك
كان عاراً علينا عند ذوى الذمام ، ويركب تنوخ الذل والعار ، فقال : هو
ليك يا عم ، ولا بأس عليك ؛ فلي سلطان يذب عني . ثم قام فاغتسل وصلى
في نصف الليل ، ثم قال لعلامة : انظر إلى المريح أين هو ؟ فقال : في منزلة كذا
كذا . فقال : زنه واضرب تحته وتدا ، وشد في رجلى خيطاً ، واربطه إلى الوتد .
فعل غلامه ذلك ، فسمعناه وهو يقول : يا قديم الأزل ، يا علة العلل ، يا صانع
المخلوقات ، وموجد الموجودات ؛ أنا في عزك الذي لا يرام ، وكنفك الذي
لا يضام ، الضيوف الضيوف ، الوزير الوزير ! ثم ذكر كلمات لا تفهم ، وإذا
هدة عظيمة ، فسأل عنها ، فقيل : وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها ،
فقتلت الخمسين . وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حاب على جناح طائر :
لا تزعموا الشيخ ، فقد وقع الحمام على الوزير . قال يوسف بن علي : فلما شاهدت

ذلك ، دخلت على المعري فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من أرض الهركار ، فقال : زعموا أني زنديق ، ثم قال : اكتب . وأملى عليّ أبياتا من قصيدة أولها :
أستغفر الله في أمني وأوجالي من غفلتي وتوالي سوء أعمالي
ثم ساق صاحب الكوكب الثاقب سبعة أبيات من هذه القصيدة .
وسأورها بتمامها عند الكلام على منظومه ؛ فإنها من شعره المفقود . وهذه القصة رواها غير واحد ، فلم يذكروا رصده للمريخ كما هنا ، وهو الأشبه بمذهب أبي العلاء ؛ فإن من يقف على كلامه في المنجمين وتقبيح أعمالهم ، يحكم بأن هذا من الموضوع عليه . والله أعلم .

والخلاصة أن الذي ظهر لي من مطالعة مؤلفاته ، أنه لم يكن ملحدا كما يزعمون ، بل كان مؤمنا بالله وكتبه ورساله ، وإنما كانت تقع له بعض الأحيان أحوال يضيق بها صدره ، فينفث نفثات يوهم ظاهرها ، وكان الأولى به تركها . وهي مهما بلغت من الشناعة والبشاعة لا تصل إلى الكفر والإلحاد ، بل فيها ما إذا قارنته بما قاله في ضده لظهر لك جليا أنه لم يرد ما سبق إلى ذهنك فيه من أول وهلة ؛ كأنحائه تارة على الديانات ، ومدحه لها تارة أخرى ؛ فإنك لو قابلت بين القولين بإمعان ، لأقنعت بأنه لم يرد بالذم الديانات نفسها ، بل أراد منتحليها المتاجرين بها ، وكثير ما هم في كل زمن .

وإنما أتى الرجل من جهة حسدته وشائتيه ، وولوع جماعة منهم بتقويله ما لم يقل ، وإشهاره بما كانوا ينظمونه على لسانه من أقوال المعطلة والزنادقة ؛ حتى صارت الأذهان لكثرة ما وقر فيها من ذلك ، إذا ألقى إليها شيء من شعره فيه إيهام ، انصرفت إلى إساءة الظن به . وسيرد عليك من أقواله ما وافق أقوال مشهورى المتصوفة ، وكبار الزهاد ، حذو القذة بالقذة . إلا أنها

ثبت لهم ، وكتبت عليه ، والله في خلقه شؤون . ولهذا اقتصر في فصول
مقدمة على ما أثبتته في مؤلفاته دون ما روى عنه غير معزو لشيء منها ، وغالبه
خافات يتنزه شعر أبي العلاء عنها ، ولا يخفى وضعها على ذي لب ، كما قال
سفيدي . كنسبتهم إليه قول القائل :

إذا ما ذكرنا آدمًا وفعاله وتزويجه بنتيه لابنيه في الخنا
علمنا بأن الخلق من نسل فاجر وأن جميع الناس من عنصر الزنا
وهذا كلام لا يصدر إلا من معتوه فقد رشده ، وحاشا لأبي العلاء أن
يكونه . ولا يخلو قائله من أحد أمرين : إما أن يكون مقررًا بالشرائع ، علما بأن
واج الأخ بأخته لم يكن محرماً في شريعة سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام ،
يكون قوله هذا ضرباً من التهديد والهوس . وإما أن يكون منكرًا لها ، فيكون
كره الزنا لا معنى له ، فإن معرفة الحلال والحرام لا تتأتى إلا من الشرائع .
ضلّا عما في البيتين من بذاءة وقلة أدب تنبؤ عنهما نفس أبي العلاء . ولست
منكرًا أنه ذكر سيدنا آدم عليه السلام في لزوم مالا يلزم بما كنت أحب له
بدم ذكره ، إلا أنه لا يبلغ في شناعته إلى هذا الحد ؛ وغاية ما فيه لومه عليه
السلام على أكله من الشجرة ، وتسببه في أذى ذريته في الدنيا بخروجه من
جنة . وسيأتي الكلام على ذلك في فصل مستقل . وقد رد على هذين البيتين
لقاضي أبو محمد الحسن بن أبي عقامة اليميني بقوله :

لعمرك أمّا فيك فالقول صادق وتكذب في الباقيين من شطّ أودنا
كذلك إقرار الفتى لازم له وفي غيره لقوا كذا جاء شرعنا
وليت القاضي تثبت من نسبة البيتين قبل تكلفه الرد بهذا الشعر الركيك .
ونسبوا إليه أشياء أخرى من هذا القبيل أضربت عن ذكرها تفاديا عن

الاشتغال بالعبث ، إلا أن ألم ببعضها إلما ما يأتي من الفصول لمناسبة . كما
أنى لم أتعرض لما أخذ عليه فى سقط الزند ؛ لأنه لا يخرج عن كونه من الغلو
الواقع لكثير من الشعراء ، وقد كفانا مؤونة البحث فيه بقوله فى خطبته :

« وما وجد لى من غلو علق فى الظاهر بآدمى ، وكان مما يحتمله صفات الله
عن سلطانه ، فهو مصروف إليه ، وما صلح لمخلوق سلف من قبل أو غير أو لم يخلق
بعد ، فإنه ملحق به ، وما كان محضا فى المين لا جهة له ، فأستقبل الله العثرة فيه »
وقد أورد شارحه فى التنوير بعض أبيات من ذلك فى شرح الخطبة . ومما
لم يذكروه قوله ، وهو عندى أشنع ما فى سقط الزند :

باهت بمهرة عدنانا فقلت لها لولا الفصيصة كان الجدى مضر
فهذا ولا ريب من محض المين الذى لا جهة له ، وقد استقال الله العثرة فيه ،
والله يغفر لمن يشاء . وما عداه ليس فيه شىء سوى الغلو المفرط . على أنه لم يأت
به إلا فى أبيات معدودة لا تتجاوز العشرة ، ولكن القليل من هذا كثير . وعندى
أن لا وجه لاغتفاره لقائله ، وفى غيره من الكلام مندوحة عنه . ولعله سرى
لأبى العلاء من أبى الطيب المتنبي ؛ فقد كان ولوعا بهذا النوع . ومنه قوله :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرن شموسا
أو كان صادف رأس عازر سيفه فى يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى
سامح الله أبا الطيب ، ما كان أغناه عن هذا الغلو الممقوت ، مع قدرته على نظم
ما هو أوقع فى النفوس ، وأخف على الأسماع ؛ وأقبح منه قبول ممدوحه له ،
وإجازته عليه . ولا أدرى ما كان عذر المعز فى قبوله قول ابن هانى :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

اللهم إلا أن يكون ما نقل عن القوم من دعوى الألوهية في الباطن صحيحا .
وما في سقط الزند دون هذين القولين بمراحل .

وقد رأيت أبا العلاء شدد النكير على ابن هاني وأضرابه في رسالة الغفران ،
راستقبح منهم مثل هذا الغلو ، فلعله رجع عنه .

وقد عقد الثعالبي فصلا في يتيمة لما أخذ على أبي الطيب ، جاء فيه بأشياء
ممجوجة . ومع هذا فلم يلهجوا بكفاره كما فعلوا مع أبي العلاء ؛ وذلك لما وقر
في النفوس من شهرته بالزندقة ، كما ذكرت آنفا ، حتى كادوا يلصقون به كل
شعر من هذا القبيل . وقد رأيت بعضهم يروى له قول المتنبي :

أَغَايَةُ الدِّينِ أَنْ تُحْفُوا شَوَارِبَكُمْ يَا أُمَّةً ضَحَكَتْ مِنْ جَهْلِهَا الْإِمَامُ

هذا وديوان أبي الطيب مشهور متداول في الأيدي ، فما ظنك بغير المشهور ؟
وكذلك أبو نواس لما كان مشهورا بالإجادة في وصف الخمر ، نسبوا إليه فيها
ما لم يقله ، فكثير المنحول في شعره . ونقل عن بعض العلماء أنه كان يقول : أو شك
هؤلاء الرواة أن ينسبوا للمجنون كل شعر فيه ليلى . وقوله هذا ينبغي للأديب أن
يتنبه له ، فلا يقدم على نسبة قول لقائل بسبب اسم اشتهر به ، ولهج بذكره ، في
شعره ؛ فقد كان الشعراء أسماء شائعة بينهم خفت على ألسنتهم ، وحدثت في
أفواههم ، فكانوا كثيرا ما يأتون بها زورا ، نحو : ليلى ، وهند ، وسلمى ،
ودعد ، ولبنى ، وعفراء ، وأروى ، وريتا ، وفاطمة ، ومية ، وعلاوة ، وعائشة ،
والرباب ، وجمل ، وزينب ، وأشباههن . ذكر ذلك ابن رشيق ، ثم قال : وأما
عزة وبثينة فقد حماهما كثير وجميل ، حتى كأنما حرمتا على الشعراء . انتهى .

وكما اشتهر بعض الشعراء بأسماء ، اشتهر غيرهم بفنون وأنواع غلبت عليهم ،
وسهلت على نفوسهم ، فأجادوا القول فيها ؛ كأبي نواس في الخمر ، والبحتري في

الطيف ، وابن المعتز في التشبيهات ، وديك الجن في المراثي ، وأبي الطيب في الأمثال والحكم ، وابن الرومي في الهجاء . بل رأيت بعض شعراء غلبت عليهم ألفاظ استعملوها كثيرا ، كأُم دُفَر عند المعري ، وابن ودّي عند الأمير محمود سامي باشا البارودي . ومن تتبع شعر كل شاعر ، ربما لا يعدم أمثالا فيه . فيكون اقتصارنا على ما أثبتته أبو العلاء في مؤلفاته ، أدعى إلى الإنصاف ، وأبعد عن الاعتساف .

واعلم ، أرشدك الله ، أني لم أنتصر له في بعض المواضع جنوحا إلى عصبية ، أو استرسالا مع هوى . ولكنني وقفت في الكثير من أقواله على اعتقاد صحيح ، وإيمان ثابت لا يخالطه شك . فكان تأويل ما عداها بما يحتمله اللفظ ، أولى من التسرع إلى إكفار مؤمن ، والحكم عليه بالزندقة ؛ خصوصا وأن ما يدل على إيمانه صريح في لفظه ، والذي يوهم محتمل لوجهين ، فعمله على ما يوافق الصريح من أحد وجهيه أحق وأصوب . فإذا رأيت شيئا من ذلك فلا تتسرع في الإنكار على ، بل عليك بتحسين الظن ، ومراجعة النظر ، تجد ما قلته غير بعيد . وحسبك ما أثاروه على الإمام أبي حامد الغزالي في قوله : ليس في الإيمان مكان أبدع مما كان ، حتى وضعوا فيه المؤلفات ، وشغلوا الناس بالترهات . ولا شك أنه لم يُرد بقوله هذا ما ذهبوا إليه وتأولوه . وأى مسلم يخالجه ريب في عقيدة هذا الإمام ، وهو حجة الإسلام ؟

ولله درّ أبي العلاء حيث يقول :

جَوَارِكُ هَذَا الْعَالَمِ الْيَوْمَ نَكْبَةٌ عَلَيْكَ وَلَيْسَ الْبَيِّنُ عَنْهُ مُيَسِّرًا
سَيَعْلَمُ ذَاكَ الْمُدَّعَى صِحَّةَ الْهُدَى مَتَى كَانَ حَقٌّ أَئِنَّا كَانَ أَخْسَرًا

ويقول :

لحي الله قوماً إذا جئتهم بصدق الأحاديث قالوا كفروا

ويقول :

أما في الأرض من رجلٍ لم يبِر فيفرق بين إيمان وكفر

وقال أيضاً :

لا تقيد لفظي علي فإني مثل غيري تكلمي بالجاز

ومثله قوله :

وليس على الحقائق كلّ قولي ولكن فيه أصناف الجاز

فصل في معتقده في الله

من زعم أن أبا العلاء كان من منكرى وجود الإله جل وعلا ، فقد زعم باطلا ، وأسرف في الشطط ، ودل على جهله بحقيقة معتقده . وهيهات أن تنهض له حجة ، أو يجد لزعمه مستندا ، لو طالبناه بالدليل .

ونحن مثبتون في هذا الفصل من أقواله ما ليس وراءه متسع لطاعن ، أو مجال لمتقول ، وبادئون منها بثلاثة أقوال ، ربما خفي المراد منها على كثيرين ، فأولوها على غير ما ينبغي أن تؤول ، ثم تتبعها بما يكشف الرين عن عقيدة الرجل في خالقه .

أولها قوله :

قُلْتُمْ لَنَا صَانِعُ حَكِيمٌ قُلْنَا : صَدَقْتُمْ ، كَذَا نَقُولُ
زَعَمْتُمُوهُ بِإِلَآ مَكَانٍ وَلَا زَمَانَ إِلَّا فَقُولُوا
هَذَا كَلَامُ لَهُ خَبِيٍّ مَعْنَاهُ لَيْسَتْ لَنَا عُقُولُ

وليس في هذه الأبيات إنكار لوجود الإله ، وحسبك منها قوله : « قلنا صدقتم ، كذا نقول » ، لكن يؤخذ من ظاهرها إثبات الزمان والمكان له تعالى ، وهو ما لا يقول به إلا المجسمة وأضرابهم ، تنزه الله عما يقولون . وقد ذكر صاحب المعاهد التنصيص أن الفخر الرازي أورد هذه الأبيات في كتابه الموسوم بالأربعين ، وأعقبها بقوله : « وقد هذى هذا في شعره » ، وقد وقفت على نسختين من هذا الكتاب فلم أجده قال ذلك ، فلعل العبارة تحرفت على صاحب المعاهد ، فتوهم

نہا ما ذكره . ولما كان المقام يحتاج إلى تفصيل لاستيضاح ما يرمى إليه
بوالعلاء ، اقتضى أن ننقل إليك عبارة الأربعين ، ثم نعقبها بما ظهر لنا في هذه
لآيات . قال « الفخر » في مبحث حدوث العالم ، وإيراد شبهات المخالفين وردّها :
« السؤال الرابع : إذا قلنا كان الله موجودا في الأزل ، وسيكون موجودا
في الأبد ، فقولنا كان يفيد أن أمرا كان موجودا وحاصلا ، وقد انقضى وما بقي .
ويكون يفيد أن أمرا سيصير موجودا وحاصلا ، وبعد ما حصل . فإذا كل
ما يصدق عليه أنه كان وسيكون ، فهو محكوم عليه بكونه متجددا متغيرا ، فذات
الله تعالى لما كان واجب الدوام ، ممتنع التغير ، وجب أن لا يصدق عليه البتة
أنه كان في الأزل ، وسيكون في الأبد ، وأنه كائن الآن . ثم لما جربنا عقولنا
وجدناها حاكمة بأن كل ما لا يصدق عليه أنه كان قبل وسيكون بعد وأنه
كائن الآن ، فهو عدم محض . وعند هذا قال المنكرون إنكم لما أثبتتم ذاته منزهة
عن الجهات والأيون والأوضاع ، خرج هذا الإثبات عن العقل ، واقترب من العدم
المحض ؛ ثم إنكم لما أثبتتموه منزها عن أن يصدق عليه قولنا كان ويكون وهو
كائن ، فهذا تصریح بالعدم المحض . فإن أدخلتموه تحت قولنا كان ويكون
وهو كائن ، اقتضى ذلك الحكم بكونه متجددا متغيرا ، فكيف الخلاص من
العقد الحيرة ، والمضايق المضلة المعمية . ونظم المعري هذا المعنى في شعر له
فقال . . . » انتهى .

ثم أورد الأبيات ، إلا أنه روى مكان قوله « زعمتموه » ، « ثم زعمتم »
وشرع في الرد على هذا السؤال . فقال :

« الجواب عن السؤال الرابع : وهو قوله إن كل ما يصدق عليه كان ويكون
فهو متجدد متغير ، فنقول : المراد من قولنا كان ويكون استمراره مع الأزمنة

الآتية والأزمنة الماضية ، من غير أن يكون متغيرا بحسب تغير هذه الأزمنة ؛ وهذا المعنى لا يدركه إلا العقل الذى نوره الله تعالى بنور هدايته ، وإن كان الوهم والخيال يعجزان عنه . » . انتهى كلامه .

ثم ساق حجج المشايخ على بقاء الصانع بما يخرج عن قصدنا هنا . ولا يخفى ما فى قوله إن هذا المعنى لا يدركه إلا العقل الذى نوره الله بنور هدايته . فإذا علمت هذا ، ثم علمت أن مذهب السلف رضى الله عنهم فى الصفات النقلية ، كالاستواء على العرش ، والنزول إلى السماء الدنيا ونحوها ، أنها صفات ثابتة وراء العقل ما كلفنا إلا اعتقاد ثبوتها والتصديق بها من غير تفسير ولا تأويل ، مع اعتقاد عدم التجسيم والتشبيه ، لئلا يضاد النقل العقل — ظهر لك أن عبارة أبي العلاء إنما ترمى إلى هذا المعنى ، وتشير إلى هذا القصد ؛ فراحده أن مثل هذه الأمور لا تتسع العقول لإدراكها ، بل هى مما استأثر الله بعلمه . وليس فى الآيات ما يمنع من حملها على ذلك . بل كيف يتصور فى الرجل اعتقاد التجسيم ونحوه ، وهو القائل فى موضع آخر :

تَعَالَى اللَّهُ وَهُوَ أَجَلُّ قَدْرًا مِنْ الْأَخْبَارِ عَنْهُ بِالتَّعَالَى

ومن يذهب فى التنزيه إلى هذا الحد لا يتصور فيه اعتقاد التجسيم . ثم اعلم أن مذهب السلف يرجحه كثيرون من المتكلمين . وكان الإمامان مالك والزهرى يقولان به ، بل هو عقيدة الإمام أحمد بن حنبل وأتباعه إلى يومنا هذا . وإنما رجحوه لما فيه من السلامة من تعيين معنى قد يكون غير مراد له تعالى ، وهو الأوفق لحل العامة عليه ، صيانة لعقولهم عن الزلل ، كما فصله الإمام الغزالى فى « إجماع العوام ، عن علم الكلام » . وقد وقفت على فصل للفخر الرازى فى تفضيل هذا المذهب ، ذكره فى تفسيره الكبير عند قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى

عَلَى الْعَرْشِ » ، مع أن هذا الإمام من كبار الأشعرية القائلين بالتأويل .

ولله در الإمام خميس بن علي الواسطي حيث يقول :

تَرَكَتُ مَقَالَاتِ الْكَلَامِ جَمِيعَهَا لِمُبْتَدِعٍ يَدْعُو بِهِنَّ إِلَى الرَّدَى
وَلَا زَمْتُ أَصْحَابَ الْحَدِيثِ لِأَنَّهُمْ دُعَاةٌ إِلَى سُبُلِ الْمَسْكَرِ وَالْهَدَى
وَهَلْ تَرَكَ الْإِنْسَانُ فِي الدِّينِ غَايَةً إِذَا قَالَ قَلَدْتُ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا
على أن كثيرا من أئمة الكلام أيضا يرجحون مذهب الخلف في تأويلهم
هذه الصفات تأويلا يليق بجلال المولى عز وجل ، لما في هذا المذهب من مزيد
الإيضاح والرد على الخصوم . ولكل من أصحاب المذهبين وجهة لا يريدون بها
إلا الوصول إلى الحق ، فرضى الله عنهم أجمعين ، وجزاهم عنا أحسن الجزاء .

الثاني من الأقوال : قوله :

أَمَّا الْإِلَهِ فَأَمْرٌ لَسْتُ مُدْرِكُهُ فَاحْذَرْ لِجَمِيلِكَ فَوْقَ الْأَرْضِ إِسْخَاطَا
وليس في هذا أيضا إنكار لوجود الله تعالى ، وإنما فيه الإيماء إلى عجز البشر
عن إدراك كنه ذاته تعالى . ولعمري ما نطق إلا بالصواب . وأين للخلوق ضعيف
لا يصل إلى إدراك كنه نفسه من الوصول إلى هذا المقام ؟ وفي كتاب تأييد
الحقيقة العلية للسيوطي ، قال شارح منازل السائرين في بيان عجز العقول عن
إدراك الذات المقدس ، وترك الفكرة في ذلك : « يعرف العبد أن عقله يعجز عن
إدراك كل الموجودات من المخلوقات فضلا عن خالقها ، وقد عجزت العقول عن
إدراك الخاصية التي يجذب بها المغناطيس الحديد ، والسقمونيا الأخطا الصفراوية ،
إلى غير ذلك ، مع النقطع بوجودها . فإذا عرف العبد عجزه ، وأيس من الوقوف
على غاية مطلبه ، حمله ذلك على التمسك بحبل التعظيم والإجلال ، وسلم بذلك
من الوقوع في شيء من الاختلال . » . انتهى .

وفيا نقل عن أمير المؤمنين كرم الله وجهه أنه كان يقول : « التوحيد أن لا تتوهمه » ويقول : « كل ما أدركته فهو غيره » . وكان الصديق رضى الله عنه يقول : « يا من غاية معرفته القصور عن معرفته » . أما قوله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ » ، فالأكثر على حمل البصر هنا على الجارحة ، من حيث إنها محل القوة . وقيل هو إشارة إلى ذلك وإلى الأوهام والأفهام . فالبیت على هذا عقد لمعنى هذه الآية الكريمة . وقريب منه قوله من قطعة أخرى :

وإنَّ إلهي إلهُ السَّما رَبُّ الْوُهوِدِ وَرَبُّ النَّبِکِ
سَأَلْتُ الْمُحَدَّثَ عَنْ شَأْنِهِ فَمَا زَالَ يَضْعِفُ حَتَّى أُرْتَبِکِ

الثالث : قوله :

مَتَى عَرَضَ الْحِجَابُ لِلَّهِ ضَاقَتْ مَذَاهِبُهُ عَلَيْهِ وَإِنْ عَرَضَتْهُ

ومعناه ظاهر بَيِّن ، يشبه ما في القول السابق . وقد فسر بعضهم بقوله : « أى لا يزال عقل الإنسان يتسع مجاله في الأمور ، ويستعمل أنواع القياس ؛ حتى ينتهى إلى الله تعالى . فإذا انتهى إليه ضاقت المذاهب عليه ، فلم يعلم أكثر من أنه سبحانه خالق المخلوقات . » . انتهى .

وقد أحسن أبو العلاء في قوله بعد هذا البيت :

وَقَدْ كَذَبَ الَّذِي يَغْدُو بِعَقْلٍ لِتَصْحِيحِ الشُّرُوعِ وَقَدْ مَرَضَتْهُ

الشروع : جمع شرع . قال بعض الفضلاء : « مَرَضُ الشرائع أن تخفى أسبابها ، فلا يُوقَفُ على حقائقها ، فيظن الناظر فيها أنها فاسدة ، وإنما الفاسد عقله ، لأنه تعاطى مرًا غامضا ليقف عليه . » . انتهى .

قلت : فليت المتبعجين كل يوم بإصلاح الدين الإسلامى ليوافق روح العصر كما يزعمون ، ينظرون نظرة فى هذا البيت ، نسأل الله لنا ولهم الهداية .

وبعد ، فليس فى كلام أبى العلاء ما يؤهم نقصا فى حق الخالق سبحانه وتعالى ، فضلا عن إنكار وجوده ، غير هذه الأقوال الثلاثة . وقد عرفت أنها ليست فى شيء من ذلك البتة . فلم يبق إلا أن أسرد لك عيون أقواله الدالة على حسن معتقده فى خالقه . قال :

لِلْعَلِيكَ الْمَذَكَّرَاتُ عَبِيدُ وَكَذَلِكَ الْمُؤَنَّثَاتُ إِمَاءُ
قَالَهَلَالُ الْمُنِيفُ وَالْبَدْرُ وَالْفَرْ قَدْ وَالصُّبْحُ وَالثَّرَى وَالْمَاءُ
وَالثَّرِيَّا وَالشَّمْسُ وَالنَّارُ وَالنَّهْ رَةُ وَالْأَرْضُ وَالضُّحَى وَالسَّمَاءُ
هَذِهِ كُلُّهَا لِرَبِّكَ مَا عَا بِكَ فِي قَوْلٍ ذَلِكَ الْحُكْمَاءُ
خَلَنِي يَا أَخِيَّ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فَلَمْ يَبْقَ فِيَّ إِلَّا اللَّهُمَاءُ
وقال :

إِذَا قِيلَ لَكَ أَخَشَ اللَّهَ مَ مَوْلَاكَ فَقُلْ : آرَا

آرَا : كلمة فارسية ، معناها : نعم . وقال :

بِعِلْمِ إلهِي يُوجَدُ الضَّعْفُ شِيمَتِي فَلَسْتُ مُطِيقًا لِلْغُدُوِّ وَلَا الْمَسَرَى
غَبَرْتُ أَسِيرًا فِي يَدَيْهِ وَمَنْ يَكُنْ لَهُ كَرَمٌ تُكْرَمُ بِسَاحَتِهِ الْأَسْرَى
أَصْبَحُ فِي الدُّنْيَا كَمَا هُوَ عَالِمٌ وَأَدْخُلُ نَارًا مِثْلَ قَيْصَرَ أَوْ كِنَرَى
وَلِيَّ لَا زَجُو مِنْهُ يَوْمَ تَجَاوَزُ فَيَأْمُرُنِي ذَاتَ الْيَمِينِ إِلَى الْيُسْرَى
وَإِنْ أَغْفَ بَعْدَ الْمَوْتِ مِمَّا يَرِيْنِي فَمَا حَظِّي الْأَذْنَى وَلَا يَدِي الْخُسْرَى

اليسرى هنا : من اليسر ضد العسر ، وليست من اليسار ضد اليمين . وقال :

اللَّهُ لَا رَيْبَ فِيهِ وَهُوَ مُحْتَجِبٌ بَادٍ وَكُلٌّ إِلَى طَبْعٍ لَهُ جَذْبًا

وقال :

لَا تَكْذِبَنَّ فَإِنْ فَعَلْتَ فَلَا تَقُلْ كَذِبًا عَلَى رَبِّ السَّمَاءِ تَكْشِبَا
فَاللَّهُ قَرُّدٌ قَادِرٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُدْعَى لِآدَمَ صُورَةٌ أَوْ تُحْسَبَا
وَإِذَا أَنْتَسَبْتَ فَقُلْتَ إِنِّي وَاحِدٌ مِنْ خَلْقِهِ فَكُنْ بِذَاكَ تَنْسَبَا

وفي معنى البيت الثانى قوله من قطعة أخرى :

مَا زَالَ مُلْكُ اللَّهِ يَظْهَرُ دَائِبًا إِذْ آدَمُ وَأَبُوهُ فِي الْأَضْمَارِ

لعله أراد بأبيه : التراب الذى خلق منه ، وفى بعض النسخ : وبنوه ،

وهو ظاهر .

وقال :

وَلَمْ يَحْبِبْنِي أَحَدٌ نِعْمَةً وَلَكِنْ مَوْلَى الْمَوَالِي حَبًّا
نَصَحْتُكَ فَأَعْمَلْ لَهُ دَائِبًا وَإِنْ جَاءَ مَوْتُ فَقُلْ مَرَّحَبًا

ومن طمعه فى عفو ربه ، قوله :

أَرَى أَشَبَّ مِرْآةَ اللَّيْلِ وَمَنْ يَكُنْ مَرَانِيهِ الْإِخْوَانُ يُصَدِّقُ وَيُكَذِّبُ
أَخْشَى عَذَابَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَادِلٌ وَقَدْ عِشْتُ عَيْشَ الْمُسْتَضَامِ الْمُعَذَّبِ

ومثله قوله :

وَمَا أَنَا يَا نَسٍ مِنْ عَفْوِ رَبِّي عَلَى مَا كَانَ مِنْ عَمْدٍ وَسَهْوٍ

ومثله قوله أيضاً :

لَمْ لَا أُوْمَلُ رَحْمَةً مِنْ قَادِرٍ وَالشُّوْلُ يُطْلَبُ فِي السَّحَابِ الْأَسْوَلِ

وقال يذكر خوفه من العقاب :
طُوبَى لِمَوْءُودَةٍ فِي حَالِ مَوْلِدِهَا
يَا رَبِّ هَلْ أَنَا بَأْغُفْرَانٍ فِي طَعَنِي
وقريب منه قوله :

ظُلُمًا فَلَيْتَ أَبَاهَا أَلْفَظَ مَوْءُودُ
مُزَوَّدٌ إِنَّ قَلْبِي مِنْكَ مُزَوَّدُ

قَدْ فَنَى الْوَقْتُ مَا حِيلَتِي
إِنْ خَتَمَ اللَّهُ بِغُفْرَانِهِ

إِذَا انْقَضَ الْإِمْنَالُ وَالْمَهْلُ
فَسَكُّ مَا لَاقِيَتْهُ سَهْلُ

وقال في خوفه وطمعه :

أَمَّا الْحَيَاةُ فَلَا أَرْجُو نَوَافِلَهَا
رَبِّ السَّمَاءِ وَرَبِّ الشَّمْسِ طَالِعَةٍ
ولله دره حيث يقول :

لَكِنِّي لِإِلَهِي خَائِفٌ رَاجِعُ
وَكُلُّ أَزْهَرِي فِي الظُّلُمَاءِ خَرَّاجِعُ

لَيَقْعَلِ الدَّهْرُ مَا يَهُمُّ بِهِ
لَا تَبَاسُ النَّفْسُ مِنْ تَفَضُّلِهِ

إِنَّ خُظُونِي بِخَالِقِي حَسَنَةٌ
وَلَوْ أَقَامَتْ فِي النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ

وقال :

أَرَى انْكِفَاتِي إِلَى الْمَنَابَا
أُثْبِتُ لِي خَالِقًا حَكِيمًا

أَغْنَى عَنِ الْأُسْرَةِ الْكِفَاةُ
وَلَسْتُ مِنْ مَعْشَرِ نِفَاةِ

وقال :

سُبْحَانَ مَنْ بَرَأَ النُّجُومَ كَأَنَّهَا
لَوْ شَاءَ رَبُّكَ صَيَّرَ الشَّرَاطِينَ مِنْ
وَالْتَّاجُ تَقْوَى اللَّهِ لَأَمَّا رَصَعُوا
وقال من أخرى :

دُرٌّ طَفَا مِنْ فَوْقِ بَحْرِ مَا تُجْرِ
هَذِي الْكُورَا كِبٍ عِنْدَ أَذْنِي ثَائِجِ
لِيَكُونَ زِينًا لِلْأَمِيرِ التَّائِجِ

فَزِعُوا إِلَى ذِكْرِ الْمَلِكِ وَحَسَبِهِمْ

أُنْسَا بِذَلِكَ فِي الضَّمِيرِ الْوَاحِجِ

وقال :

أَحَازِرُ السَّيْلِ وَمَنْ لِي بِمَنْ
جَاءَ إِذَا أَسْمَعَنِي رَعْدَهُ
وَالْوَقْتُ لَا يَفْتَأُ فِي مَرِّهِ
مُقَرَّبًا مِنْ أَجَلٍ بَعْدَهُ
فَرَاقِبِ الْخَالِقَ بِالْغَيْبِ فِي أَرْ
قِيمَةٍ وَالنِّيمَةِ وَالْقَعْدَةِ

أراد الهيئة من القيام والنوم والنعود ، فجاء بها على فعلة بكسر الأول . وهو عقد لمعنى قوله تعالى : « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ » ومعنى الآية ، والله أعلم : الذين لا يغفلون عنه تعالى في عامة أوقاتهم ، كما ذهب إليه بعض المفسرين .

وقال أبو العلاء :

إِذَا كُنْتَ مِنْ فَرَطِ السَّفَاهِ مُعْطَلًا
فَيَا جَاهِدُ أَشْهَدُ أَنَّنِي غَيْرُ مُجَاهِدٍ
أَخَافُ مِنَ اللَّهِ الْمُقُوبَةَ أَجَلًا
وَأُزَعِّمُ أَنَّ الْأَمْرَ فِي يَدَيْهِ مُجَاهِدٍ
فَإِنِّي رَأَيْتُ الْمُلْحِدِينَ تَعُودُهُمْ
نَدَامَتُهُمْ عِنْدَ الْأَكْفِ اللَّوَاهِدِ

ليت شعري كيف يُرْمَى بالإلحاد من يخاطب الملحدين بمثل هذا الكلام ؟ وفيهم يقول أيضاً :

أَمَّا الْمُجَاوِرُ فَارْعَهُ وَتَوَقَّهِ
وَأَسْتَغْفِرِ رَبَّكَ مِنْ جَوَارِ الْمُلْحِدِ
لَيْسَ الَّذِي جَعَدَ الْمَلِيكَ وَقَدْ بَدَتْ
آيَاتُهُ بِأَخْرِ لِمَنْ لَمْ يَجْهَدْ
ويقول :

إِذَا سَاءَ أَلْحَدَتْ أُمَّ بَجْهَلٍ
فَقَابِلَهَا بِتَوْحِيدِ السُّيُوفِ
كَأَنَّا فِي سَجَايَانَا نَقُودُ
كثِيرَاتُ الْبَهَارِجِ وَالزُّيُوفِ
وَهَذِي الْأَرْضُ لِلدَّائِلِ الْمَرْجَى
نَلِمُ بِهَا كَالْمَامِ الضُّيُوفِ

وقال :

تَعَالَى اللَّهُ كَمْ مَلِكٍ مَهِيْبٍ تَبَدَّلَ بَعْدَ قَصْرِ ضَيْقٍ لَخْدِي
أَقْرَبُ بَابٍ لِي رَبًّا قَدِيرًا وَلَا أَلْقَى بَدَائِعَهُ بِجَحْدِي

وقال :

بَوَّخْدَانِيَّةٍ أَلَسَّامِ دِنًا فَذَرْنِي أَقْطَعُ الْأَيْتَامَ وَخْدِي
سَأَلْتُ عَنِ الْحَقَائِقِ كُلِّ قَوْمٍ فَمَا أَلْفَيْتُ إِلَّا حَرْفَ جَحْدِي
سِوَى أَنِّي أَرُؤُ بَغَيْرِ شَكٍّ فِي أَيِّ الْبِلَادِ يَكُونُ لَخْدِي

وقال :

وَلَقَدْ وَجَدْتُ وَلَاءَ قَوْمٍ سُبَّةٍ فَأَصْرِفْ وَلَاءَكَ لِلْقَدِيمِ الْمُوجِدِ

وقال :

يُسَمُّونَ بِالْجَهْلِ عَبْدَ الرَّحِيمِ وَعَبْدَ الْعَزِيزِ وَعَبْدَ الصَّمَدِ
وَمَا بَلَغُوا أَنْ يَكُونُوا لَهُ عَبِيدًا وَذَلِكَ أَقْصَى الْأَمَدِ
وَلَكِنَّهُ خَالِقُ الْعَالَمِينَ نَ ذَائِبِ أَجْزَائِهِمْ وَالْجَمَدِ
تَعَمَّدهُ يُغْنِيكَ بِالْهَدْيِ أَنْ تُدْرَسَ مُغْنِيهِمْ وَالْعَمَدِ

المغني ، والعمد : كتابان أحدهما في علم الكلام ، والآخر في الأصول ، وهما للقاضى عبد الجبار بن أحمد ، من كبار أئمة المعتزلة ، المتوفى سنة خمس عشرة أوست عشرة وأربعمائة . ولأبى محمد عبد الله بن العباسى الرامهرمى المعتزلى كتاب اسمه المغنى أيضاً ، إلا أن ذكره مقروناً بالعمد يدل على أن المراد الأول .

وقال أبو العلاء :

كَمْ غَيَّرْتُنَا بِأَمْرِ خُطِّ حَادِثَةٍ وَرَبَّنَا اللَّهُ لَمْ تُلْمِمْ بِهِ الْغَيْرِ

وقال .

مَا زَالَ رَبُّكَ ثَابِتًا فِي مُلْكِهِ يَنْمِي إِلَيْهِ لِلْعِبَادِ جُورًا

وقال :

وَالْجَهْلُ أَغْلَبُ غَيْرَ عِلْمٍ أَنَّنَا نَفْنَى وَيَبْقَى الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

وقال في الإقرار بالذنوب من قطعة :

غُفِرَانَ رَبِّكَ قَلَّ مَا فَعَلَ الْفَقَى مَا لَيْسَ مُخَوِّجُهُ إِلَى اسْتِغْفَارِ

صدق والله ، فغفرانك اللهم . وقال :

رَجَزَتْ بِتَسْبِيحِ الْمَلِكِ حَمَامَةٌ بِالشَّامِ تُوْطِنُ أَوْ تَحُلُّ حِجَازًا

وَالطَّيْرُ مِثْلُ الْإِنْسِ تَعْرِفُ رَبَّهَا وَتَرَى بِهَا الشُّعْرَاءَ وَالرُّجَازَا

وقال في معناه :

سَبَّحَ اللَّهُ نَاعِبٌ ، صَوْتُهُ : غَا قِ ، وَكُذْرِيَّةٌ تَصِيحُ : قَطَا

وقال :

صَنَعَتْ عَزَّتِ الْأَنَامُ بِلُطْفِ وَعَزَّتْهَا إِلَى الْقَدِيرِ الْعَوَازِي

مَلِكٌ أَنْشَأَ السَّمَوَاتِ فَالْبَدُ رُ لَدَيْهِ فِي صُورَةِ الْجُلُوزِ

كَمْ لَهُ كَوْكَبٍ أَبْرَهُ وَأَزَّ النَّاسَ حَتَّى سَطَا عَلَى أَبْرَازِ

وقال :

لَنَا رَبٌّ وَلَيْسَ لَهُ نَظِيرُ يُسَيِّرُ أَمْرَهُ جَبَلًا وَيُرْسِي

تَظَلُّ الشَّمْسُ مَا هِنَةً لَدَيْهِ فَمَا بَلَقِيسُ أَمْ مَاسِتَ بَرَسِ

وقال :

إِذَا كُنْتَ بِاللَّهِ الْمُهَيِّمِ وَائِقًا فَسَلِّ إِلَيْهِ الْأَمْرَ فِي اللَّفْظِ وَاللَّحْظِ

يُدَبِّرُكَ خَلْقُ يُدِيرُ مَقَادِرًا تُخَطِّيكَ إِحْسَانُ الْغَنَائِمِ أَوْ تُحْطِي

وقال :

وَسِرْتُ عُغْرِي إِلَى قَبْرِ عَلَى مَهَلٍ وَقَدْ دَنَوْتُ فَحَقَّ الْخَوْفُ وَالْهَلَكُ
مَا نَحْنُ أَمْ مَا بَرَأَيَا عَالَمٍ كَثُرَ فِي قُدْرَةِ بَعْضِهَا الْأَفْلَاكُ يَبْتَلِعُ

وقال :

نَدِينُ بِأَنَّ اللَّهَ وَتَرُّ وَخَوْفُهُ رَشَادٌ فَصَلُّوا الْوِثْرَ فِي الدَّهْرِ وَالشَّفَعَا

وقال :

الْأَرْضُ لِلَّهِ مَا اسْتَخَفِّي الْخُلُوعُ بِهَا أَنْ يَدْعَوْهَا وَهُمْ فِي الدَّارِ أَضْيَافُ
تَنَازَعُوا فِي عَوَارِي قَبِيلِهِمْ نَبَلٌ حُطَامٌ وَأَرْمَاحٌ وَأَسْيَافُ
إِنْ خَلَقُوكَ وَلَمْ يَجْرُدْ خِلَافُهُمْ شَرًّا فَلَا بَأْسَ إِنَّ النَّاسَ أَخْيَافُ

أخياف : أى مختلفون ، ومنه : إخوة أخياف ، إذا كانت أهمهم واحدة
وأباؤهم شتى ؛ فإذا كانوا لأب واحد من أمهات شتى ، قيل : هم أبناء علات .

وقال فى معنى ما تقدم :

هُوَ الْمَلِكُ الدَّوَّارُ أَجْرَاهُ رَبُّهُ عَلَى مَا تَرَى مِنْ قَبْلِ أَنْ تَجْرِيَ الْعُلُكُ
لَهُ الْعِزُّ لَمْ يَشْرَكَهُ فِي الْمَلِكِ غَيْرُهُ فَيَاجْهَلُ إِنْسَانٍ يَقُولُ : لِي الْمَلِكُ

ومثله قوله :

وَيَقُولُ دَارِي مَنْ يَقُولُ وَأَعْبُدِي مَنَ فَالْعَبِيدُ رَبَّنَا وَالنَّارُ

وقوله أيضا :

وَالْمَلِكُ لِلَّهِ مَنْ يَطْفَرُ بِنَيْلِ غَنَى بَرْدُهُ قَسْرًا وَتَضَمَّنَ نَفْسُهُ الدَّرَكَ
لَوْ كَانَ لِي أَوْ لغيري قُدْرٌ أَنَّهُ لَمَّا مِنْ التُّرَابِ لَكَانَ الْأَمْرُ مُشْتَرَكًا

ذكر الإسحاقى فى تاريخه أن السلطان سليما العثمانى لما فتح مصر نزل بالروضة فى مكان أعد له بالمقياس ، ونقل عن القطبى أنه رأى هذين البيتين مكتوبين بخطه بأعلى المقياس على الرخام الأبيض كتابة خفية لا تكاد تظهر إلا بالتأمل ، ومرقوم تحتها : كتبها الفقير سليم . ثم قال : ولعمري إن كان هذان البيتان من نظم المرحوم فهما فى غاية البيان والبراعة ، ونهاية فى الشعر العربى الفصيح المنسجم ؛ وإن كان تمثل بهما فهما أيضاً مرتبة عالية فى حسن التمثيل ولطف الاستحضار . انتهى . قلت : أما كونهما له فقد ثبت خلافه ؛ فلم يبق إلا أنه تمثل بهما . وما هو بكبير على فضل هذا السلطان وإطلاعه . وسلاطين آل عثمان ، وإن اشتهر عنهم قلة الاهتمام باللغة العربية ، فقد نبغ منهم جماعة فيها . منهم : السلطان محمد الفاتح ؛ وفضله فى الاشتغال بالعربية غير منكور . ومن شيوخه المولى خواجه زاده ، قرأ عليه متن عز الدين الزنجانى فى التصريف ؛ وكانت العلماء تجتمع عنده للمناظرة ، وتعجبه مباحثاتهم . ويحكى أنه كان فى صفه غير مهتم بالطلب ، فأمر والده السلطان مراد المولى شمس الدين الكورانى بالتشديد عليه ، فصدع بأمره ، حتى ضربه مرة ضرباً موجعاً ، ولم يزل به حتى ختم القرآن الكريم فى مدة يسيرة . ومنهم : السلطان مراد الثالث ابن سليم المتوفى سنة ١٠٠٣ . كان أجمل أهل بيته علماً وأدباً وذكاء وفهماً . اشتغل بالتصوف وبرع فيه ، ونظم الشعر باللغات الثلاث : الفارسية والتركية والعربية . ومنهم : السلطان أحمد بن محمد حفيد السلطان مراد المار ذكره . كان من فضلاء وقته ، مال للأدب والمحاضرات ، ونظم الشعر بالتركية . ومما يروى له من الشعر العربى قوله :

ظَنِيَّ يَصُولُ وَلَا وُصُولَ إِلَيْهِ جَرَحَ الْفُؤَادَ بِصَارِمِي لَحْظِيهِ

مَا قَامَ مُعْتَدِلًا وَهَزَّ قَوَامَهُ إِلَّا تَهْتَكْتَ الشُّتُورَ عَلَيْهِ
يَسْقَى الْمَدَامَةَ مِنْ سُلَافَةِ رِيْقِهِ وَيَخْضُنَا بِالْغُنْجِ مِنْ جَفْنِيهِ
عَيْنَاهُ نَزْجِسْنَا وَآسُ عِذَارِهِ رِيْحَانْنَا وَالْوَرْدُ مِنْ خَدَّيْهِ
يَاشَعُرُ فِي بَصَرِي وَلَا فِي خَدِّهِ إِنْ أَعَارُ مِنَ النَّسِيمِ عَلَيْهِ
عَجَبِي لِسُلْطَانٍ يُعَزُّ بِعَدْلِهِ وَيَجُورُ سُلْطَانُ الْغَرَامِ عَلَيْهِ
لَوْ لَا أَخَافُ اللَّهَ ثُمَّ جَحِيمُهُ لَعَبْدَتُهُ وَسَجَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ

والبيتان الأخيران من قصيدة لابن رزيك الشيعي ، أتى بهما السلطان علي

سبيل التضمين .

رَجَعَ إِلَى شِعْرِ أَبِي الْعَلَاءِ

فمن دلائل إيمانه بالله ، وتفويضه الأمر إليه ، قوله :

رَدَدْتُ إِلَى مَلِكِ الْخَلْقِ أَمْرِي فَلَمْ أَسْأَلْ مَتَى يَقَعُ الْكُسُوفُ
فَكَمْ سَلِمَ الْجَهْلُ مِنَ الْمَنَابَا وَعُوجِلَ بِالْحِمَامِ الْفَيْلَسُوفُ
وقال :

وَالرُّوحُ طَائِرٌ مَحْبُسٌ فِي سِجْنِهِ حَتَّى يَمُنَّ رَدَاهُ بِالْإِطْلَاقِ
سَيَمُوتُ مَحْمُودٌ وَيَهْلِكُ آلِكٌ وَيَدُومُ وَجْهُ الْوَاحِدِ الْخَلَاقِ

وقال :

أَزُولُ وَلَيْسَ فِي الْخَلْقِ شَكٌّ فَلَا تَبْكُوا هَلَى وَلَا تُبْكُوا
خُذُوا سِيرِي فَهِنَّ لَكُمْ صَلَاحٌ وَصَلُّوا فِي حَيَاتِكُمْ وَزَكُّوا

وقال :

نَسَمْتُ رِجَالَ الْمُلُوكِ سَفَاهَةً وَلَا مُلُكَ إِلَّا لِلَّذِي خَلَقَ الْمُلُكَ

أَرَىٰ فَلَكُمَا مَا دَارَ إِلَّا لِحِكْمَةٍ فَلَا تَنْسَ مَنْ أَجْرَىٰ إِحْجَانِكَ الْفُلُكَا

وقال :

إِنْ يُرْسِلِ النَّفْسَ فِي اللَّذَاتِ صَاحِبَهَا فَمَا يُخَلِّدُنَ صُعُوكَا وَلَا مَلِكَا
وَمَنْ يُطَهِّرُ بِخَوْفِ اللَّهِ مُهْجَتَهُ فَذَاكَ إِنْسَانٌ قَوْمٍ يُشْمِعُهُ الْمَلِكَا

وقال :

شِفَاءُ مَا بِكَ أَعْيَانِي وَأَعْيَاكَ مَالِي أَرَاكَ غَبِيًّا لَسْتَ تَقْدِرُ أَنْ
تُخْصِيَ خُطَاكَ فَهَلْ تُخْصِي خَطَايَاكَ

وقال :

يَا خَالِقَ الْبَدْرِ وَشَمْسِ الضُّحَىٰ مَعُولِي فِي كُلِّ حَالِي عَلَيْكَ
وَكُلُّ مَلِكٍ لَكَ عَبْدٌ وَمَا يَبْقَىٰ لَهُ مُلْكٌ فَيَدْعَىٰ مُلِيكَ
قَدْ رَامَتِ النَّفْسُ لَهَا مَوْئِلًا فَقُلْتُ : مَهْلًا، لَيْسَ هَذَا إِلَيْكَ
إِنَّ الَّذِي صَاغَكَ يَقْضِي بِمَا شَاءَ وَيُمْضِي فَارْجُرِي عَاذِلَيْكَ
الْبَحْرُ فِي قُدْرَتِهِ نَغْبَةٌ وَالْفَلَاحُ الْأَعْظَمُ فِيهَا فَلَيْتَكَ

وقال :

إِلَهَ الْأَنْامِ وَرَبَّ الْغَمَامِ لَنَا الْفَقْرُ دُونَكَ وَالْمُلْكُ لَكَ

وقال :

فَلَا تَسْأَلِ الْمَرْءَ الْغِنَىٰ عَطَاءُهُ وَرَجَّ الْغِنَىٰ مِنْ رَبِّكَ الْمُتَعَالَىٰ

وقال :

أَمَا تَرَىٰ الشُّجْبَ فِي أَفْلَاكِهَا أَنْتَقَلَّتْ بِقُدْرَةٍ مِنْ مَلِيكَ غَيْرِ مُنْقَلٍ

وقال :

نَمُوتُ لِأَنَّا حُلَفَاءُ نَقْصٍ وَيَبْقَىٰ مَنْ تَفَرَّدَ بِالسَّكَمَالِ

وقال :

حِكْمٌ تَدُلُّ عَلَى حَكِيمٍ قَادِرٍ مُتَفَرِّدٍ فِي عِزِّهِ بِكَمَالٍ

وقال :

تَوَهَّمْ بَعْضُ الْقَوْمِ وَهْمًا فَأَصَلُّوا يَقِينُ أُمُورٍ بَاتَ يَتَّبِعُهَا الْوَهْمُ
جَهْلُنَا ، وَلَسَكِنْ لِلْخَلَائِقِ صَانِعٌ أَقْرَبُ بِهِ فَسَلُّ مِنْ الْقَوْمِ أَوْ شَهْمٌ

وقال في رد تأثير الأشياء لله تعالى :

وَقَدْ يَأْمُرُ اللَّهُ أَلْسِنَهُمْ إِذَا نَبَا فَيَفْرِى وَقَدْ يَنْهَى أَلْسِنَهُمْ فَيَكْثُرُ

وزاد هذا المعنى وضوحا بقوله وأجاد :

لَوْ يَنْطِقُ السَّيْفُ نَادَى لَيْسَ لِي عَمَلٌ قَضَى مَالِكُ الْأَفْلَاكِ أَنْضَانِي
مَتَى أَرَادَ فَصَفَحَايَ اللَّذَانِ هُمَا بِحَرُّ الرَّدَى مِنْ حَيَاضِ الْمَوْتِ حَوْضَانِي
وَإِنْ كَهَمْتُ فَأَمْرُ اللَّهِ أَكْهَمَنِي وَإِنْ مَضَيْتُ فَأَمْرُ اللَّهِ أَمْضَانِي

وقال :

مَا فِي بَنِي آدَمَ غِنًى بَلْ كُلُّهُمْ مُقْتَرٌ عَدِيمٌ
يَعْنَى الَّذِي مَالُهُ فَنَاءٌ وَذَلِكَ الْوَاحِدُ الْقَدِيمُ

وقال :

رَأَيْتُ سَجَايَا النَّاسِ فِيهَا تَظَالُمٌ وَلَا رَيْبَ فِي عَدْلِ الَّذِي خَلَقَ الظُّلْمَةَ

وقال :

فَسَادٌ وَكَوْنٌ حَادِثَانِ كِلَاهُمَا شَهِيدٌ أَنَّ الْخَلْقَ صُنْعُ حَكِيمٍ

وقال :

أَبِ الْقَدْرِ الْمَتَّاحِ تَدِينُ جِنَّ تَسْمَعُ غَيْرَ هَائِبَةِ الرُّجُومِ

وَتَعْلَمُ أَنَّ مَا لَمْ يُقْضَ صَعْبٌ
بِإِذْنِ اللَّهِ يَنْفُذُ كُلُّ أَمْرٍ
يَجُوزُ بِحُكْمِهِ مَوْتُ الثُّرَيَّا
وَكَمْ وَجَمَ الْفَقَى مِنْ بَعْدِ ضِحْكَ
وَقَالَ :

إِذَا مَدَحُوا آدَمِيًّا مَدَحَ
وَذَاكَ الْغَنَى عَنِ الْمَادِحِينَ
لَهُ سَجَدَ الشَّامِخُ الْمُسَخِرُ
وَمَغْفِرَةُ اللَّهِ مَرْجُوءَةٌ
وَقَالَ :

أَدِينُ رَبِّ وَاحِدٍ وَتَجَنَّبِ
قَبِيحَ الْمَسَاعِي حِينَ يَظْلِمُ دَائِنُ
وَقَالَ :

إِذَا مَا شِئْتُمْ دَعَا وَخَفَضَا
وَلَا يُعْقَدُ لَكُمْ أَمَلٌ بِخَلْقِ
وَقَالَ :

مَطِيتِي الْوَقْتُ الَّذِي مَا امْتَطَيْتُهُ
وَمَا أَحَدٌ مُعْطَى وَاللَّهُ حَارِي
وَقَالَ :

لَعَمْرِي لَخَيْرُ الدُّخْرِ فِي كُلِّ شِدَّةٍ
وَلَا مُلْكَ إِلَّا لِلَّذِي عَزَّ وَجْهُهُ
إِلَهُكَ تَرْجُو فَضْلَهُ وَأَلَاهُ
وَدَامَتْ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ عِلَالُهُ

وقال :

تَهَجَّدَ مَعَشَرٌ لَيْلًا وَنَمْنَا وَفَارَ بِحِنْدِسٍ مُتَهَجِّدُوهُ
إِلَهُكَ أَوْجَدَ الْأَشْيَاءَ جَمْعًا فَلَا يَفْخَرُ بِشَيْءٍ مُؤَجِّدُوهُ
وَرَبُّكَ أَنْجَدَ الْأَقْوَامَ حَتَّى بَنَى أَعْلَى الْقُصُورِ مُنْجِدُوهُ
فَمَجَّدُوهُ فَلَمْ يَحْسَرْ أُنَاسٌ أَنْابُوا إِلَيْكَ وَمَجَّدُوهُ

ولنختم هذا الفصل بقوله :

تَشَابَهَتْ الْأَشْيَاءُ طَبْعًا وَصُورَةً وَرَبُّكَ لَمْ يُسْمَعْ لَهُ بِشَبِيهِ

هذه أقوال من يتهمه المتخردون بإنكار الإله ، سقناها إليك لتكرر النظر

فيها المرة بعد المرة ، ثم نكلك إلى محاسبة نفسك ، ومحاكمة فكرك ؛ هل ترى

فيها غير التوحيد والتنزيه ، وإجلال اسمه تعالى ، والطمع في رحمته ، والخوف

من عقابه ، والحض على التقوى ، والإنكار على الملحدين ؟

ولا نخالك بعد ذلك إلا منصفه ، إن كنت من المحاصيين .

فصل في معتقده في النبوات والرسل

يتهم الكثيرون أبا العلاء بمجدد النبوات ، وعدم الإيمان بالبعث والنشور ؛ وكثيراً ما يعتمدون تحريف كَلِمِهِ ، أو صرف ظاهره إلى غير مراده ، افتياتاً عليه ، وانتصاراً لمدعاهم . فضلاً عما وضعوه على لسانه من الكذب والبهتان ، كما أثبتته نَقْلَةُ أخباره . وقد مر بك حديثه مع القاضي المنازى ، وكيف اقتضبه الرواة ليثبتوا إلحاده وإنكاره للآخرة . ونقل ياقوت والسلوى عن القاضي أبي يوسف عبد السلام القزويني أنه قال : « قال لي المعري : لم أهج أحداً قط . فقلت : صدقت ، إلا الأنبياء عليهم السلام ! فتغير لونه . أو قال : وجهه . اهـ » ولا أدري ماذا يثبت به هذا الحديث أو ينفيه .

وإليك ما ذكره العلامة ابن الوردي في تمة المختصر ، وهو من أدق الباحثين في أمره . قال : « قال لي يوماً بعض أصحابي من الأمراء ذوى الفهم : كيف كان أبو العلاء في اعتقاد البعث ؟ فأشدته قوله :

فَيَا وَطَنِي إِنْ فَاتَنِي مِنْكَ سَابِقٌ مِنْ الدَّهْرِ فَلْيَنْعَمْ إِسَاكِكَ أَنْبَالُ
وَإِنْ أَسْتَطِيعُ فِي الْحَشْرِ آتِكَ زَائِراً وَهَيْهَاتَ ، لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَشْغَالُ

وبلغني أن بعضهم زعم أن أبا العلاء كان ينكر النبوات ، فهذا مردود بقول أبي العلاء :

عَجِبْتُ وَقَدْ جُرْتُ الصَّرَاةَ رِفْلَةً وَمَا خَضِلْتُ مِمَّا تَسْرِبَاتِ أَذْيَالُ
أَعْمَتِ إِلَيْنَا أُمُّ فِقَالِ بْنِ مَرْيَمَ فَعَلْتُ ، وَهَلْ يُعْطَى النُّبُوَّةَ مِكَسَالُ

وقوله في شريف :

يَا ابْنَ الدِّيِّ بِلِسَانِهِ وَبَيَانِهِ هُدَى الْأَنَامُ وَنُزْلَ التَّنْزِيلِ

عَنْ فَضْلِهِ نَطَقَ الْكِتَابُ وَبَشَّرَتْ بِقُدُومِهِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ

وقال في الشريف أبي إبراهيم العلوي الموسوي :

يَا ابْنَ مُسْتَعْرِضِ الصُّفُوفِ بِمَذَرٍ وَمُبِيدِ الْجُمُوعِ مِنْ غَطَفَانِ
أَحَدِ الْحَسَنَةِ الَّذِينَ هُمْ الْأَغْنَى رَاضٍ مِنْ كُلِّ مَنْطِقٍ وَالْمَعَانِي
وَالشُّخُوصِ الَّتِي خُلِقْنَ ضِيَاءَ قَبْلَ خَلْقِ الْمَرِيخِ وَالْمِيزَانِ
قَبْلَ أَنْ تُخْلَقَ السَّمَوَاتُ أَوْ تُنَا مَرَّ أَفَلَا كُفُنَ بِالذُّوَرَانِ
وَأَفَقَ اسْمُ ابْنِ أَحْمَدَ اسْمَ رَسُو وَلِ اللَّهِ لَمَّا تَوَافَقَ الْمَعْنِيَانِ
يَا أَبَا إِبْرَاهِيمَ قَصَّرَ عَنْكَ الشُّرُ مَرُّ لَمَّا وَصِفْتَ بِالْقُرْآنِ
أَشْرَبَ الْعَالَمُونَ حُبَّكَ طَبْعًا فَهَوَ قَرَضُ فِي سَائِرِ الْأَذْيَانِ

وقوله :

أَيَدْفَعُ مُعْجَزَاتِ الرُّسُلِ قَوْمٌ وَفِيكَ وَفِي بَدِيهَتِكَ أَعْتِبَارُ »

انتهى كلام ابن الوردى . وما ذكره من الشعر منقول من سقط الزند .
ولقائل أن يقول ما لكم تنتصرون للرجل بكلامه في سقط الزند ، وهو لم يقصد
به بياناً لمذهبه ، أو شرحاً لمعتقده ، بل جرى فيه مجرى الشعراء في أفانينهم
الشعرية ، وأخرجه مخرج هيامهم في كل واد من القول وضرب من الخيال ؛
وهم كما تعلمون يجوزون الكذب ، ويقولون ما لا يفعلون ؛ فشأنه في ذلك شأنهم
ودعواه دعواهم ؛ فإذا مدح شريفاً لم يكن له بد من تقديس آبائه ، والإقرار
لجدهم عليه الصلاة والسلام بالنبوة والرسالة ، تعظيماً لشأن المدوح ؛ كما لا مندوحة
له في الرثاء عن وصف ما لقيه المرثي من التكريم في جنات النعيم ، ليكون قوله
مقبولاً لدى من يخاطبهم ، وأدعى للحظوة عندهم ، وإن لم يكن هو معتقداً له .

وما يقال في هذا يقال في غيره ، وإلا للزمكم أنه كان على غير ما تدعون له من الزهد والتقوى ، لما أثبتته في هذا الديوان من الغزل والتشبيب وبكاء الشباب والفخر ، وهى والزهد على طرفي نقيض . فلو اقتصرتم على ما في لزوم ما لا يلزم ونحوه من الكتب التى وضعها لبيان فلسفته وآرائه ، لسلتم من مثل هذا النقد . وتقول في رد ذلك : ربما كان لما ذكرت وجه من الصحة ، إلا أنا لما رأيناكم أخذتم الرجل على بعض ما جاء في هذا الديوان ، واستدرجتم به إلى الطعن في عقيدته ، مع أنه لا يخرج عن الغلو المألوف للشعراء كما بيناه آنفاً — استعجزنا أيضاً أن نحجكم بما جاء فيه من صريح ذكر الحشر ، والإيمان بالرسول وإثبات المعجزات لهم عليهم السلام . وشتان ما بين حجتينا . على أن ما ادعيتموه لا يصح الحكم به على مطلق شعر يقوله الشاعر ، وإلا فالويل للشعر والشعراء بعدئذ .

وبعد ، فإننا لم نحكم لأبى العلاء بصحة إيمانه بالرسول والنبوات إلا من أقواله المثبتة لذلك ، المصرحة به . فلا ريب في أن ما يوعم في ظاهره نقيضها من أقواله الأخرى ، مؤول بما يحتمله لفظه ؛ وكثير منها لم يرد به الطعن على الأديان نفسها ، بل أراد أهلها ومنتحلها ، لتفريطهم فيها أو إفراطهم ، كما صرح به في أقوال أخرى ، سنأتى عليها في هذا الفصل .

وقد رأيت بعض المتعصبين عليه يظفر بالبית الموهم ، فيرويه فذاً من غير نظر لما قبله أو بعده . ولو تدبر ذلك لظهر له مراده ، ولم يجد سبيلاً للطعن عليه . على أنا مع هذا لا نبرئه رحمه الله من بعض سقطات زلّ بها لسانه ، ليس فيها جحد للنبوات ، ولكن ذكرها لا يخلو من شناعة . فكان الأولى له التفادى عن نظمها في هذا السمت . ولا مشاحة في عذر من أنكر عليه فيها ، وإنما

كلامنا فيمن يرميه بالإلحاد ، وهو براء منه ، بدليل ما ذكرناه من كلامه وما سند كره .

أما من استدل على إنكاره النبوات ، وتحكيمه العقل في التحسين والتقبيح ، بقوله :

عَلِمَ الْكَائِنَاتِ فِي كُلِّ وَجْهِ أَوَّلَ عِنْدَهُ السَّمَاءُ صَبِي
خَالِقُ الذِّبَرَاتِ مَا يَتَغَابَى أَلَّا عَبْدُ لَكِنَّهُ ضَعِيفٌ غَبِي
أَيْهَا الْغُرُّ إِنْ خُصِصْتَ بِعَقْلِ فَاسْأَلْنَهُ فَكُلُّ عَقْلٍ نَبِيٌّ

فقد أخطأ المرمى ، ونكب عن سبيل القصد ، فإن مراده بقوله « فكل عقل نبى » أن العقل كاف في الإخبار والدلالة على وجود صانع لهذه الكائنات ، ولا عذر للعبد في جهله بخالقه ، ما دام له عقل ينظر به ويستخبره ، كما يدل عليه سياق الأبيات عند التأمل .

وهذه المسألة من المسائل التي قام فيها الخلاف بين أئمة الكلام ، وانقسم فيها أهل السنة إلى قسمين . فذهب جمهور الماتريدية وعامة مشايخ سمرقند إلى أنه تعالى لو لم يبعث للناس رسولا لوجب عليهم بمقولهم معرفة وجوده تعالى ووحدته واتصافه بما يليق به من الحياة والعلم والقدرة وغيرها ، وكونه محدثا للعالم ؛ وهو أيضاً أرجح قولى الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه . وذهب جمهور مشايخ الأشاعرة إلى أنه لا يجب إيمان ولا يحرم كفر قبل بعث الرسل . ولا يرد على الأول أنه لو كان العقل حجة كافية ما أرسل الله الرسل ، ولا كفى به ؛ لأنه يقال في جوابه : لما كان أمر البعث والجزاء مما يشكل على العقل وحده ، إلا بعظيم تأمل فيه ، وكذلك أنواع العبادات والحدود ونحوها لا تنال بمجرد العقل — كان إرسال

الله تعالى رسله وإنزال كتبه ، لبيان ذلك . وأصل الخلاف إنما هو في الإيمان بالله ، لا في أحكام الشرائع . فإن قيل لو كان العقل كافياً في ذلك لاقتصرت الشرائع على بيان ما ذكرتم ، ولم تتعرض لأحكام الإيمان بالله تعالى وتنزيهه ، واتصافه بصفاته اللائقة ونحوها ، اكتفاء بدلالة العقل عليها . قلنا : كان ذلك لزيادة التمكن وتتممة البيان ، من قبيل توارد الأدلة وتعاقبها . فإنه تعالى لم يدعنا والبيان بآية واحدة ، بل مَنْ عَلَيْنَا سُبْحَانَهُ بآيات متكررة . وكذلك لم يدعنا ورسولاً واحداً من أول الأمر إلى آخره ، والحجة كانت قائمة بالواحد ، كما بقيت بنبينا عليه الصلاة والسلام إلى القيامة ؛ فلا يدل ذلك على أن الرسول الواحد أو الآية الواحدة لم يكونا حجة كافية .

هذا محصل ما ذكره في هذا المقام ، ولكل من الفريقين أدلة من الكتاب والسنة يحتاج بها لمذهبه ، فاطلبها إن شئت في كتب الكلام ، خصوصاً فيما ألف منها في الخلاف بين الماتريدية والأشعرية ؛ وانظرها أيضاً في كتب التفسير عند قوله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » .